الفصل الرابع

لقاء مع جورج جِتْسُن George Jetson في بكين

إن مـــدن الصين اليوم هي مُحَرِّكاتُ حَيَوِيَّتِهـــا الاقتصاديَّة. إذ تتنافس مدن العالم على المكانة،وفرص العمل، والنفوذ السياســـي. أما الصين، فالمنافسة بين مدنها لَهْوٌ دَمَوِي.

يطالب مئات الملايين من المواطنين حكوماتهم بتســـليمهم مزايا عصر الصين الذهبي بأسرع وقت مُمكن. غير أن الصينيين يعلمون، على الرغم من تفاؤلهم، أن المـــال الذي يَجوسُ في البلاد قد يُدفن يوماً في باحات البيوت الخلفية، وفي ثنايا الفراش، وفي حسابات في مصارف أجنبية في لَمْحِ البَصَر. وإن تقلباً اقتصادياً أو أزمة سياسية، إن وقعت، فقد تُنهي سراعاً كلَّ الخير الذي يَعمُّ الجميعَ اليوم. ويقول الصينيون إنهم يميلون، بِطبائعهم، إلى الادِّخار وإلى وضع خطط لأَيّام سَـــوْداء قد تأتي، لقناعتهم أن ثَمَّة مجهولاً خبيئاً ربما يُطلُّ عليهم. والصينيون يختَصّون بأعلى نسبة ادِّخار في العالم، إذ يُخَبِّؤون، وسطياً، أربعين بالمئة من دخلهم.

فتفاؤل الصين في ظاهره، ثم ســـلوكُها نهجاً لبناء ســـريع كبير إذن، هو مؤشِّـــرُ قَلَقِهـــا. وقد تعيش الصين طويلاً وتُعَمّر، غيـــر أن ذلك يزيد من الاحتمالات الجيدة والسيئة في آنٍ معاً. فالاندفاع الصاخب الذي تشهده المدن الشرقية المُهِمَّة من الصين لبنـــاء كتل كبيرة ومهمة، والتي طالمـــا أَحْبَطَتها الحكومةُ المركزية، إنما يُعطي ســـيرَ الأُمور فيها الآن سيراً حسناً لهو أفضلُ ضمانٍ للمستقبل، وأفضل خيارٍ لها اليوم.

كانـــت مراكـــز المدن الكبيرة على طول الشـــاطئ الشـــرقي، قبـــل أن يصل الشـــيوعيون إلى الســـلطة، تُؤوِي 90 بالمئة من صناعة الصين. وكانت شـــنغهاي وجوانجزهاو Guangzhou تمتازان بقوتهما. فقد حَوَّلَ اســـتثمارٌ يابانيٌّ كبيرٌ

في منشورية، في الشمال الشرقي للصين، في ثلاثينيات القرن العشرين، مدينة شنيانج Shenyang، التي كان اسمُها مُكْدِن Mukden، إلى مركز صناعي رئيس. واليابانيون الغزاة، المذمومون بوحشيتهم، رأوا في الصين موقعاً لأفضل صناعاتهم. وقد استثمرت اليابانُ اليومَ في الصين استثماراً نَهِماً. فتدفقت أعمالها عليها لأسباب مألوفة- هي إغراء أُجور اليد العاملة البخسة والأسواق الكبيرة – ولاستغلال المصادر الطبيعية التي تنقص اليابان.

لم تعد مزايا المدن الصينية الاقتصادية وقوة جذبها للمستثمرين العالميين ذات شأن، بعد أن تولت الحكومة الشيوعية مقاليد الأمور. فكان للاعتبارات الإستراتيجية والسياسية الأولوية عندها. أما ماو، فكان يعنيه تنمية مراكز الصين الصناعية ونشرها في أرجاء البلاد. فثارت المنشآت الصناعية الأولى في منشورية المصدر الأول لخطط التنمية الصناعية الشيوعية في عهد ماو، إذْ نُقِلَت الآلات والمصانع التي أحضرتها احتكارات الشركات اليابانية وسواها إلى مراكز صناعية مُخْتارةٍ جديدةٍ بعيدة عن الشاطئ. فأُدْخِلَت بذلك مدن الصين القوية في سُباتٍ قَسْريّ دام عقوداً.

وعندما حَوَّلت حكومة الصين في عهد دِنْج زياوْبنْج مَسارَها، التَفَتَت ثانية إلى مُدُنِها التي شَهِدَت الازْدِهارَ مِن قَبْلُ. ربما كان المزارعون قد بدأوا الثورة التجارية يومئذ، غير أن حكومة الصين جَدَّت في دَعْم الإصلاح، وبَرَعَتْ في ذلك أحياناً في مراكز المدن التي اختارتها.

إن كلية شنغهاي للعلوم الاجتماعية خير مثال على الموارد التي نظمتها. حيث ارتبطت الكلية بمجموعة مُعْجِبَةٍ من المعلومات مع الدوائر الداخلية في حكومة المدينة، جُلّهم خريجو جامعاتها. وارتَبَطَت الكلية بشبكة دولية من أهم جامعات العالم ومراكز أبحاثه. إنها مركز قوي للمعلومات في الصين وفي أكبر مدنها. وستصبح شنغهاي، بمساعدة الكلية، الابتكار الذي أظهر الصين في أفضل حال لها؛ مَكُّوكها الفضائي، ومعرض العالم، وموقعها المتَمَيِّز في آن معاً.

يَستقبل المسؤولون في حرم الكلية، أمام شارع هواي هاي Huai Hai المزدحم في شنغهاي، عدداً كبيراً من كبار الشخصيات في كل يوم، فيهيئون قاعات استقبال على النحو الذي تكون عليه غرف الفحص في عيادات الأطباء المزدحمة. فيبتسم كبار الزوار الأجانب ويشيرون بالتحية إلى زوار كبار آخرين باستغراب وهم يسيرون في الممرات. وقد تمركز أكثر من ستين صحفي أجنبي في شنغهاي في شهر واحد من سنة 2003م، كان معظمهم يعتمد على الكلية لكي يحصل على معلومات عن الموقع. وكان الباحثون مُجبَرون، كواجب عليهم، تجاه بلدهم، ومدينتهم، ومعهدهم،، أن يُلقوا محاضرات على كل مجموعة من القادمين الجدد. كانوا يقدمون لهم الخليط الأكاديمي المُعتاد من وجهات نَظَرٍ ونَقْدٍ حَصيف، يفي بغرض المؤتمرات الدولية الذي يطلبه حثيثاً علماء شنغهاي. ويدعوهُم الأجانب الصينيين، من ثم لزيارة مؤسساتهم ومعاهدهم تعزيزاً للارتباطات الأكاديميَّة في الصين. فكل مختص في علم الاجتماع ومسؤول مديني في العالم قد يرغب في الاطّلاع على داخل الصين لكي يَسْتَوْعِب «المَرَق» الصيني السحري، ويأخذ نصيباً من مُشْكِلاتها، ويعود إلى وطنه ويقول إنه رأى مستقبل الكوكب، بِخَيْره وشَرِّه. وتُرسلُ الكلية خيرَةَ علمائها ليقيموا طويلاً في جامعات عُصْبَة آيفي Ivy League الأمريكية وشبكاتها المنتشرة حول العالم. وعندما يعودون، يضعون شنغهاي في صورة أفضل اتجاهات الفكر العالمي عن سُبُل بناء المدن الحديثة.

إن كياتو Qiya Tu من خريجي جامعة هارفارد Harvard اللامعين، وهو الرئيس المساعد لكلية شنغهاي وأحد المفاتيح الرئيسة لطبقة الموظفين في المدينة. كان كياتو عضواً في هيئة العُصْبَة الزرقاء المعنية بتخطيط مسار مستقبل المدينة. درست اللجنة موقع المدينة في الثقافة، والمال، والصناعة. ودرست كيف يكون مخطط المدينة مفيداً لسكانها الحاليين والملايين الذين يأملون أن يحشروا أنفسهم فيها. وقد جالَت اللجنةُ في بحثها مُدُناً رائدة في أَصقاع العالم. وعندما

سئل عما يمكن أن تتعلمه شنغهاي من المدن الآسيوية الأخرى؟ قال: إن المدن الآسيوية لا تهمُّ كثيراً أهل شنغهاي.

وقال: «لا تخطئوا، فشنغهاي تتطلع إلى أَعْلى. فلندن وباريس ونيويورك هم نماذج أفضل، وليست طوكيو. إننا نطمح إلى ريادة التجارة، والمال، والثقافة، وللمدينة أهدافها الطموحة».

«ولأن هذه هي الصين، وشنغهاي بالذات، فإن التوصيات، عندما تُتَّخَذ، تُثَمَّن من فورها، وإذا لَقِيَت قبولاً تُنَفَّذ. لقد تَعَلَّمَت مجموعة كياتو من رحلاتها، على سبيل المثال، أن المدن الأكبر في العالم ترى قيمة في أبنيتها العتيقة التقليدية. أما الزائرون، فلا يرون في الحفاظ على كنوز شنغهاي من المباني القديمة أمراً مسلَّماً به، لا يقيده سوى الدَّمار غير المُبَرَّر للمباني القديمة الجميلة المَبْنِيَّة على الطراز الأُوروبي الذي كانَ مِن قَبْل. وثَمَّة مدن أخرى مثلها في أَمريكا، وأستراليا، أَو جنوب إِفريقية، حاكى فيها الأُوروبيون مَبانيَ مُدنهم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فَفَنُّ العمارة الذي كانَ قبل الحرب العالمية الثانية ينعَكِس في شنغهاي رغبةً بالارتباط بالثقافة الأوروبية قديمها وجَديدِها. حيث ملأت بيوت مُصَمَّمَة على طراز قلاع، وقصور إنجليزية، وفلّات فرنسية منطقة النخبة في المدينة. وتميزت المباني الداخلية في المدينة بأَبراج الشقق الانسيابية والبيوت المستقلة على طراز حداثي في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته. كانت المخازن الكبرى في شنغهاي عصرية مثل المخازن في غيرها من الدول، وتباهت فنادقها الأجود بحيويتها وغرفها المزخرفة. ويقال: إنه قد كان في المدينة أكبر مجموعة مبانٍ زيَّنَنْها الفنون في العالم، فتناقصت الآن كثيراً بسبب إعادة بناء المدينة وتخطيطها. فقد أزيلت نصف مباني المدينة التي أُنْشِأت قبل سنة 1949م، أُزيل مُعْظَمُها خلال السِنين العِشْرين الماضية.

غير أن سِحْرَ المدينة لم يَكُن مصدره كُلُّه أُوروبياً. فبقي كثير من المناطق المتهاوية القديمة في المدينة، تعيش في ظل حاضِرَة أُعيد تَصميمها لتناسب

النظـــر العلوي فحســـب. وماتزال هناك في المدينة بضعة بيوت خشـــبية صينية الطـــراز، تبدو طبقاتها الثانية كالقمرات في ســـفن الصيـــد القديمة، بألواحها الخشبية الحمراء وســـقوفها القرميدية التي تكاد تَهْوي. ترى الغسيل يَتَدَلّى من نوافذها الخارجية المنخفضة والمرتفعة، وترى ســـراويل من صوف طويلة وسِخَة وأخرى قصيرة رَثَّة، تبدو أوســـع من أن يرتديها صيني – تَتَدَلّى من أعمدة كأنها رايات جيش مَهزوم، تُذَكِّر أن الصينيين ليسوا سواء في أناقة المشاة في الطريق. وكأن هذه المناطق مُعَلَّقَة بخيط.

فَسُـــوق دنجتايDongtai مثلاً، حيث دكان التحف الذي تملكه أُسْـــرَة لي، اتُّخِذ قرارٌ بإزالته ســـنة 2004م. ويُرَجَّحُ أَنَّه سَيُسْـــتَبْدَل بمجمع أســـواق حديث كبير. وســـيُنقل أصحابُه إلى مَوْقِع في المُجَمَّع الجديد يُخَصَّص للباعة المُهَجَّرين. وبهـــذا يصبح دكانهـــم واحداً من مصادر كثيرة مثله تبيـــع قطعاً مقّلدة للقديمة، ينقُصها ســـحر النَّسَق القديم من دكاكين شنغهاي وأشباحها القديمة التي يسعى زوّارها إلى رؤيتها.

وإنه ليُســـعِدُنا أن نرى بعض أجزاء المدينة تحتفظ بِســـحْرِها القديم ويمكن إنقاذهـــا. ولا بُدَّ لذلك مـــن أن تقود المدينةُ الصينَ إلى تغييـــر أذواقها. فمعظم أجزاء البلاد عالقٌ حيثُ كانت المُدُن الأمريكية في الســـتينيات، تُفَضِّلُ كُلَّ جديد علـــى مباني البيوت والمكاتب القديمة في المدينـــة، ولم تَهُبّ لحماية القديم. وإن كان لشـــنغهاي أن تُحسِنَ اســـتعدادها لجذب أكبر الأعمال إلى المدينة – وجعلها مَقَرَّهـــا الإقليمي أو العالمي – فلابُدَّ لآباء المدينة من العمل على أن تَنالَ شـــوارعُ شـــنغهاي القديمة التي تحفها الأشجار القديمة، والبيوت الفرنسية والبريطانية، والحيّ اليهـــودي العتيق، وبعض المســـتودعات القديمة ومبانـــي رصيف الميناء، حِمايَـــةً فَوْرِيَّة. وأن تصمم أبنية جديـــدة وتبنى في بعض المواقع، حيث لا بد من هدم المباني القديمة، على طراز تلك التي تهدم – وربما أكبر– لِتُقامَ مكانها.

وقد كان قرار إجبار أصحاب البيوت القديمة على التباهي بها من التغييرات الأكثر براعة وإثارة للدهشـــة. لقد كانت تُفْصَلُ بيوت شنغهاي الأفخم عن حركة الســـير في الشوارع بجدران ســـميكة مُسَـــيَّجة قويَّة وعالية. وكانت النظرة في المدينة ترى حاجة البيوت والحدائق إلى مشـــهد عام، بينما نرى اليوم الطرقات التي كان امتداد حواجزها طويلاً يُشْبِه حواجز القلاع قد صارت مَمَرّات للحدائق، والبيوت الفخمة التي لا تُرى من خارجها تُعطي المدينةَ أَلَقاً وجمالاً.

وقد سَنَّت الحكومة الصينية قوانين تُجبِر المدن أَن توسع المساحات الخضراء فيها. ففَعَلَت شـــنغهاي أكثر من ذلك، فَسَـــوَّت رقَعاً كبيرةً من المدينة بَنَت عليها حدائق عامة ومنتزهات. فربما اضطرت، كي تحقق ذلك، إلى تسوية الأرض أولاً ثم حرثها. وقد حملت في شـــنغهاي، شحنات بعد شحنات من الأزهار المبرعمة، وزرعت في تربة ســـوداء جهزت لذلك حديثاً. وحُفِرت البِرَك في أســـابيع قليلة، وبُنِيَت غرف أنيقة في التلال للاستراحة. واقتُلِعَت أشجار كاملة النُموّ من تربتها في غابات بعيدة وزرعت في حفر ورُبِطَت جذوعها إلى الأرض بأسلاك تشُدُّها. وتَسعى شنغهاي إلى أن تُحاكي لندنَ وباريسَ في حدائقها العامة.

وصَمَّمَت المدينةُ أيضاً، بُغْيَةَ حُصولِها على مكانتها التي تستَحِقُّها، أَن تَتَخَلَّصَ من قذارة صناعة الجيل الأول ورائحته المنتنة. فلم تعد تُرَحِّب شنغهاي بالمزروعات الورقية، والمُصْهرات القذرة، ومصانع الكيميائيات، وعشـــرات من أصناف أُخرى من الصناعات التي يَنْبَعِثُ منها دُخانٌ ورائحة.

ولا بُدَّ لِكياتو ولآخرين من مُخَطِّطي شنغهاي الآن، بعد أن عادت إلى مجدها، مـــن ترويض اتِّجاه عنيد في الاقتصاد الصيني لتركيز الصناعة في مدن الصين الشـــرقية المهمة. وإن شـــنغهاي التي يزيد ناتجها المحلي الإجمالي 80 بالمئة عن من يليها من المدن المنافســـة هي الرائدة حتماً، وتخضع الآن لضغط مزدوج لكي تصعد إلى أعلى المســـتويات الدوليـــة دون أن تمتص مالاً وطاقة، بعيدة عن بقية الصين.

ويقول تشِـــن جِيَهاي Chen Jiahai مدير مركز أبحاث سياســـة التنمية في كلية شنغهاي: كان ثلثا المقاطعات الصينية يعتمد، بين الخمسينيات والسبعينيات، على شـــبكاتها الصناعية الخاصة في تزويد كل ما يحتاج إليه مواطنوها من مواد استهلاكية. وكان المتوقع أن تنتج المصانع بضائع أسعارُها منخفضة، يستطيع الناس تَحَمُّلَها. غير أن الطبيعة المشـــتتة للصناعة الصينية قد أدّت عملياً إلى اطّراد في عدم كفاءتها، وعندما بدأ إصلاح الســـوق، جعل الشـــركات الإقليمية التي تملكها الدولة ضعيفة وغير حصينة. وعندما عاد الاســـتثمار إلى مدن الصين الساحلية، عـــادت الصناعة تتركز هناك من جديد، وأحدث اقتصاد الســـوق هوة بين القديم والجديد، بين الشـــرق والغرب، بإجبار مشـــاريع الدولة القديمة غير الفاعلة على التخلي عن أسواقها المحلية لمنتجات شرقية أفضل، تجعل المدن الشرقية الناجحة أكثر غنى وإغراء. وتغطي مدينة شنغهاي 5 بالمئة من اقتصاد الصين، وتجذب 10 بالمئة من الاستثمار الأجنبي في البلاد تقريباً. وتتجاوز نسبة نموها المعدل الوطني أيضـــاً بما يجعل المدينة الخيار الأول للناس والأعمال التي تبحث عن مســـتقر لها في الصين. كما يخلق تنافساً مكثفاً بين الآخرين للحاق بها.

سحر التقليد والمحاكاة

تساءل جون جنتر John Gunther، الصحفي الذي شرحت كُتُبُه ورسائلُه العالمَ للأمريكيين في منتصف القرن الماضي، «ما الذي يجعل امرأً مُسَهَّداً وآخر في حيويـــة ومرح: وما الذي يجعل امـــرأً فَجّاً غراً ومنفعلاً وآخـــر هادئاً وقوراً مصقولاً ومُحَنَّكاً؟ إنه العمـــر؛ والجغرافية والتاريخ؛...إنها العلاقة بعمق البلاد؛ والتَنَوُّع الديموغرافي؛ وعوامل خَفِيَّة يَصْعُب تفسيرها».

وعندما طرح جنتر هذه الأســـئلة سنة 1947م، كان ينظر في الاختلاف بين وقار مدينة ســـانت لويس واستقرار مدينة كَنْسَـــس سِتي وفوضويتها. أما اليوم، فربما يسأل الأسئلة ذاتها عن نانْجِنْج Nanjing وبكين Beijing وجوانجدُنج

Guangdong ومئـات المدن الصينية الأخرى التي تُبنى وتحاول أن تفعل ما في وسـعها لتحاكي شيئاً من سحر شنغهاي. يريد قادة المدن حيثما كانوا إعادة بناء مدنهم لإيجاد أنفسـهم لاعبين في اقتصاد السـوق. وتكون النتيجة، إن سـارت الأمور وفق المخطط، قيام أمة من بناة المدن المتحمسين وبسبب ذلك تحدث هزة في أرجاء العالم لسنين عِدَّة.

إن معركة البناء تُسَـلِّط الحكومة على المقاطعات، وتُسَـلِّط المقاطعات بعضها على بعض، وتُسَلِّط مُدُناً على مُدُنٍ أُخرى. تكون أسلحتها جرافات، وكُرات الهدم، وخَلاَّط الإسـمنت، ورافعات. كانت الملصقات، والعلامـات، وأغلفة المجلات التي تمجد الآلات القوية تمثل اللون الشيوعي وألَقَه في عهد ماو. أما الفارق الآن، فهو السـعي إلى كسب المال. فإذا اسـتُعمِلَت الآلات الكبيرة على نحوٍ رأسمالي فاعل، فإنها تُنَمِّي المال. وإنها حتى لو اسـتُعْمِلَت على نحو رأسمالي أقل فعالية، وفاسد، وغير ملائم، فإن شبكات المالكين والمُشَغِّلين يستطيعون تأمين ثروات منها.

وعندمـا زار جورج بيترسُـن George Peterson الصينَ، وهو زميل في معهد المدن Urban Institute، والمعهد مؤسسة أبحاث ومنظمة دعم أمريكية خاصـة للبحث في تمويل الحكومات الصينية لذلك النمو الهائل لبُنيَتها التَّحْتية، أبان لمسؤول صيني مَحَلّي عن عجبه لأن حكومته تخطط وتبني مراكز مؤتمرات ووحدات لتنقية المياه خلال الفترة التي يمضيها هو، أي بيترسُن، في كتابة بحثه. ابتسم المسؤول وقال لبيتريسن: لابدَّ أنك تكتب بسرعة.

ويقول بيترسُـن، إن «المدن تبنى بسـرعة وتوازن ببسـاطة لا نَفْهَمهُما حتى تراهـا». فالمدن التي تُعدُّ متوسـطة الحجم في الصين، تبنـي مراكز مؤتمرات ومعـارض تفخَر بمثلها برشـلونة أو أُرْلاندو. وقـد أدى التنافس في بناء مراكز مؤتمـرات أفضـل وأكبر إلى المبالغـة في حاجة الصين إلى تضخيم كل شـيء. وفي المدن مسـاحات عرض شاسعة تملؤها الآن بمراكز عرض تضم مخازن بيع

التجزئة مثل كارفور Carrefour الفرنسي، وهوم دِبو Home Depot عملاق بيع الأدوات الأمريكي.

وربما كانت لاس فيجاس Las Vegas وحدها، بين المدن الأمريكية، تُشْبِه المدن الصينية في السرعة والمدى. ويبدو للناظر أيّ موقع إنشائي صيني كبيراً، مقارناً بمعظم مواقع المنشآت الأمريكية، مثل معسكر للجيش يستعد لمعركة على عجل. حيث تتجول فرق البناء المنوَّعة، التي ترتدي ثياب عمل حسب مهامها – ثياب عمل برتقالية اللون لعمال الكهرباء، وخضراء لعمال الحديد، وهكذا – يتجولون في الموقع في مجموعات منتظمة، يقومون بأعمالهم اليومية. ويبدأ العمل عادة في الثامنة والنصف صباحاً ويستمر حتى السابعة مساء، ستة أيام في الأسبوع أو سبعة.

يأخذ زمن تقدم العمل في البناء كمقدار انحراف زمني في التصوير الفوتوغرافي. فيُقبل المستأجرون على أبراج المكاتب ومباني السكن قبل أن يتم بناؤها، ويشاهد المارَّة تَقَدُّم البناء وأصابعهم تشير إلى أعلى لتُحصي عدد الأنوار المضاءة عند الغسق. ويشارك أوائل المستأجرين للمبنى مع عمال البناء الذين ينامون في الموقع، فتبقى بذلك كلفة البناء في حدودها الدنيا.

وترتفع المباني سراعاً، فما هي جودتها؟ وكيف تبدو؟ يقول مهندس بناء أمريكي يقيم عدداً من المشاريع الكبيرة في الصين: «كانت أجور العمال تبلغ عشرين بالمئة من تكاليف مباني الولايات المتحدة قبل سبعين أو ثمانين سنة، ويبقى ثمانون بالمئة منها قيمة المواد، ولذلك ترى المباني القديمة في المدن الأمريكية الكبرى جميلة. كان المهندسون والبناؤون يستطيعون تحمل أجور العمل ليبنوا واجهات خارجية من الحجر ويُعْنَوْن بزخارف الداخل. أما اليوم، فقد انعكست النسبة، فصار معظم المال يخصص للعمل. وهكذا صارت المباني اليوم أبسط».

إن هـذا التغيـر الديناميكي هو مقياس ما حَلَّ بصناعـة الأثاث المنزلي في العالم. إذ يمكن أن يُسـتأجر عامل في الصين بأقل من دولار واحد في الساعة، يتمتـع بمهارة واسـتعداد لازمين للقيام بمـا يتطلبه العمل، مـن زخرفة المباني الكبيرة المنبعثة بجميع الأحجام. ويقول مهندس نشـأ في نظام مقتصد لمطوري المدن الأمريكية ومجالس مدنها: «إن تصميم بناء في الصين أشبه بالحلم، حيث تستطيع أن تضع تفصيلات في المبنى لا نحلم بها في أمريكا، تبنيه اليد العاملة المحلية على أفضل طراز».

فإذا كانت خطوط أفق المباني كما تبدو في سـماء شـنغهاي وبكين وشِـنْزْهِن Shenzhen مثل مشاهد المدن من جِتْسون The Jetsons فذلك لأنها تستطيع ذلك.

فالارتقاء الحاد الذي يعيد تشـكيل المدن الصينية بأي سعر مساوم سيبقي تدفق مد المهاجرين الراغبين من المزارع ومن المشاريع الحكومية المقفلة. ويمضي بناء مدن تنافس أكبر العواصم بشكل أسرع بوجود معين لا ينضب من اليد العاملة الرخيصـة لتقوم بالبناء، وفي أوائل عام 2004م كان هناك ما يزيد عن ثلاثمائة بناء يزيد عدد طوابقها على خمسة عشر طابقاً قيد البناء في شنغهاي.

أكياس نَقْدٍ أسطوانية

كانت المباني الشـاهقة التي أُنشئت في مغامرة كبيرة لسوق الإسكان الملتهب في شـنغهاي سـنة 2004م أبنية شقق سكنية شـاهقة بيعت على شكل ملكيات مشـتركة. وقد أسـهمت مضاربة شراء الشـقق في ارتفاع السوق بين 20 و 50 بالمئة في سـنة خلال السـنوات الخمس الماضية، مما جعل سـوق العقارات في شـنغهاي أكثر الأسـواق العقارية ارتفاعاً في العالم. وقد نشرت مجلة نيوزويك Newsweek في طبعتها الآسيوية قصة أُسترالي يعيش في شنغهاي بدأ يبحث عن شـقة مساحتها مئة متر مربع في خريف سنة 2003م. كانت قيمة أول شقة زارها $120.000. وارتفعت قيم الشـقق المشابهة خلال ثمانية أشهر تَفَقَّدَ فيها أربعين شقة حتى بلغَت $300.000.

ووجد أهل شـــنغهاي مدينتهم قد غدت، خلال طفـــرة الازدهار الاقتصادي هذه، وجهة ســـلالة جديدة من المسافرين، سُمُّوا مافيا وِنْزْهو the Wenzhou Mafia، ليس لأنهم مجرمون، وإنما بســـبب التبجح الـــذي يميز أهالي زيجيانـج وولعهـــم بزيارة مواقـــع البناء في شـــنغهاي يحملون هواتفهـــم الجوالة وأكياس أسطوانية مليئة بالنقود.

بلغ شـــغف جيران شنغهاي إلى امتطاء موجة طفرة ازدهار المدينة حداً جعل صحيفـــة وِنْزْهـــو إيفننْج نيـــوز Wenzhou Evening News تنظم جولات لشراء العقارات. واندفع المشـــترون يختطفون العقارات كما يختطف السائحون الآخرون الســـاعات والحقائب اليدويـــة. وكان حضورهم الظاهـــر، الذي يذكر بأن رفاهية الصين بين أيدي قادمين جدد يشـــقون طريقهم نحو مراكز السلطة القديمة، مؤشـــراً علـــى أن على المســـؤولين المحليين أن يدركوا أخطار الســـوق الموقَدَة. وقد اســـتطاعت الصحافة الرديئة واســـتياء المســـؤولين أن تقنع وِنْزْهو إيفننْـــج نيوز بوقـــف الجولات، غير أن ضغط القراء الموســـرين في وِنْزْهو أقنع الصحيفـــة بالتراجع عن قرارها بعد شـــهور فقال دونـــج وِنيوان Dong We-nyuan مِـــن وِنْزْهو إيفننْج نيوز للفايننشـــال تايمـــز Financial Times: إن الحكومـــة المركزية أمرتنا بوَقْف الجولات، وإنما العرض والطلب هو الذي يحكم الســـوق وليس التصرف الفردي أو التدخل الإداري. وقالت الصحيفة اللندنية إن الحكومة المركزية ومســـؤولي شنغهاي لم يكونوا وحدهم قلقون من وصول مافيا وِنْزْهو. فقد كان قلق كبار المســـتثمرين الأجانب نحو مُرْغان ستانلي Morgan Stanley، ودويْتش بانـــك Deutsche Bank، سنجابوركابتال لاند Singa-pore Capital Land وأُستراليا ماكواري بانك Australia's Macquarie Bank من وصول الرأســـماليين أكياس النقد الأســـطوانية الذين ربما يفجرون الفقاعة فوق جداول حساباتهم.

وقد أكد آندي زي Andy Xie، وهو اقتصادي في مُرْغان ســـتانلي، ســـنة 2004م أن «أملاك شنغهاي كارثة تنتظر أوانها».

هـــل كان ذلك تحذيراً للذهاب إلـــى أبواب النجاة؟ لا ليس للبنائين المحليين. ففـــي منطق طفرة ازدهار الصين، يعد إدراك وجود كارثة توشـــك أن تقع دافعاً لمضاعفة الاستثمار. وتصل نسبة الشقق الجديدة الخالية إلى 40 بالمئة في بعض المـــدن، وبرغم ذلك، يوالي البناؤون التقدم بمشـــاريع جديـــدة تتجاوز إنجازاتهم السابقة. وعندما تقع مشكلة، إن وقعت، ينتظر المالكون عودة أيام أفضل.

ولاتحتاج كل أملاك شنغهاي ازدهاراً كي تَنْتَعِش. فالركود المؤقت في الأسواق تكمن فيـــه أوقاته الطيبة. وإن الأزمـــة الاقتصادية التي تبعـــت فقاعة عقارات شـــنغهاي الأخيرة في التســـعينيات خَلَّفَت مئات المباني العاليـــة في المدينة غير منجزة. كان بعضها ضحية ندرة المســـتأجرين، و كان بعضها الآخر نتيجة فساد مقاولي البناء الذين تزلفوا إلى مصارف الدولة أو المســـتثمرين المتهورين لتغطية المال اللازم لمشـــاريعهم، ثم تصرفوا بالمال في غايات خاصة بهم. فأنفق بعضهم المال في العيش الرغيد، وحَوَّل بعضهم الآخر المال إلى مشـــروعات أخرى، فشل كثير منها أيضاً.

وتســـتطيع الأملاك التي لاحياة فيها أن تُبْعَثَ في بلد أنقذ نفســـه من موت اقتصادي. فمباني الأشـــباح في شنغهاي التي لم تكن تُقَيَّم بأكثر من ثمن الأرض التـــي تقف عليها والحجارة التي قد تُسْـــتَرَدُّ منها، صارت الآن تُشْـــغَل. فعندما ارتفعت أسعار الشقق الفاخرة الجديدة في المدينة على نحوٍ فاق قدرة المشترين، تحوَّلوا إلى استئجار المباني التي كانت ميتة، حيث تبلغ أجرة المسكن الشهرية في الأبنية الجديدة الخُمُس أو أقل. فمن تُرى ينتقل إلى السكن فيها؟ إن سكانها هم بعـــض المهاجرين الجدد. وإن معظمهم مازال يعمل بأجور «فقيرة». غير أن كثيراً منهم اســـتطاعوا أن يعيشوا عيشاً أفضل، بأن يباشروا أعمالاً خاصة بهم تعتمد على جلب عمال جدد من قراهم.

إن ذلـــك نهج مألوف فـــي أرجاء العالم، غير أن تَحَـــرُّك الصين إلى الأعلى يفوق بقية دول العالم النامي مجتمعة. وهذا جزء من الخليط الذي يجعل الصين

شـــديدة المنافسة على مســـتويات مختلفة. إنها تســـتطيع أن تطور مدناً عظيمة وتبنيها بينما تســـتمر في تلبيـــة حاجة العالم بقواها العاملـــة الرخيصة في آن معاً. وبينما نجد أماكن أخرى في العالم تؤمن العمل الرخيص وهي تَتَسَـــلَّق سُلَّم التنمية درجةً درجة، وتلهج بالدعاء مع كل خطوة كي لا تتعثر.

كيف هرب المارد من القمقم

ربما لاتكون شـــنغهاي، برغم كل عجائبها، التَحَوُّل المدني الأكثر إعجاباً في الصين. فهذه المأثرة هي من حق شينْزِهنShenzhen حتماً، وهي مدينة قريبة من هونج كونجكانت حتى ســـنة 1980م مدينة صيد ســـمك يســـكنها ســـبعون ألف شـــخص تحيط بهم حقـــول الأرز. ولم يكن في المدينـــة خدمة نقل عام في ذلـــك الوقت، وكان زائـــرو المدينة يتجولون فيها على أقدامهـــم أو على دراجات يستأجرونها من محطة القطار على تخوم المدينة.

غير أن كل شيء تغير سنة 1980م عندما وقع اختيار دنج زياوبنج Deng Xiaoping علـــى المدينـــة لتكون من أوائل المراكز لتجربة رأســـمالية الســـوق. ومنحت شينزهين اسم أول منطقة اقتصادية خاصة في الصين، أو SEZ Special Economic Zone وكأنمـــا رفع القائد الأعلى للصـــين بضربة إلهية، أو ربما بضغط مفتاح على كومبيوتر في لعبة سِم سيتي SimCity – مكانة مدينة ستصبح قريباً أكبر من باريس، أو مونتريال أو لوس آنجِلُس.

اعتقد دنج أن موقع شـــينزهين قرب هونج كونج ســـيجذب الاهتمام والمال والتجـــارة من هونج كونج . وســـتمتلئ شـــينزهين بالمســـتثمرين الأجانب الذين ســـيحملون معهم التكنولوجية، والســـلع التي تحتاج إلى تطوير، والعملة الأجنبية القيمة، التي يفضل أن تكون الدولار. وتســـتطيع الحكومة المركزية أن تأخذ زمام المبـــادرة بالتغيير في شـــينزهين. فحتى ذلك الحين، كانـــت الحكومة تلعب دور التابـــع، تُجَمِّل بالإصلاح كُلَّ عمل تجاري يبدأ المزارعـــون به. أراد دنج أن تكون شينزهين تجربة مستقبل الاستثمار الحر في الصين.

لـــم تتوقع قيادة الصين في ذلك الوقت أن يطغى الاســـتثمار الخاص في قلب مســـتقبل الصين. وإنما كان أملها أن تقدم بضعة مناطق رأسمالية علاجاً للبطالة، والجمود الاقتصادي، وخزائن الدولة الفارغة. وإن إصلاح الصين الذي طرحه دنج لم يَتَخَل عن الماركسية. ولن يسلم السلطة إلى الذين هم خارج الحزب الشيوعي، الذي ســـيبقى في مكانته حارساً للمســـتقبل. هذا المرسوم، الذي حمل الصيغة الشهيرة: «اشـــتراكية على الطريـقة الصينية». قد حدده دنج بوضوح في خطاب شمل بذور تطور المستقبل ألقاه أمام المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي سنة 1982م.

يجب أن ننطلق من الحقائق الصينية في تطبيق برنامجنا للتحديث. ســـواء أكان ذلـــك في الثورة أم فـــي البناء الذي ينبغي أن نتعلمه مـــن البلدان الأجنبية ونفيـــد من خبراتها، غير أن التطبيق الآلي للخبرة الأجنبية ونســـخ نماذجها لن يعـــود علينا بالنفع. لقد اســـتقينا كثيراً من الدروس في هـــذا المجال. ويجب أن تتكامـــل الحقيقة العالمية للماركســـية والحقائق الواقعية في الصين، وأن نشـــق طريقنا بأنفسنا، ونبني اشتراكية على الطريقة الصينية – فذلك ما خلصنا إليه بعد مراجعة تاريخنا الطويل.

لقـــد ركَّزَ ماو على الطريقـــة الصينية، غير أن تَحَوُّل دنج سَـــمَحَ «للطريقة الصينية» أن تتضمن استثماراً حراً طالما تستطيع الحكومة أن تبقي تطور شينـزهين منضبطاً، فقد يَتَضَمَّن أيضاً أثراً مُفْســـداً تَحمِله الرأسمالية في خباياها. ولكي يحصل ذلك، قدمت منطقة SEZ مزايا فريدة ضمن حدودها. وقد حصل الذين جلبوا أعمالاً إلى المنطقة على تخفيضات ضريبية سخية.5 فصارت هونـج كونـج من أغنى المدن في العالم بســـبب الدور الذي لعبته كوســـيط بين الصين والعالم الخارجي. وقد حققت شـــينـزهين، كأول مدينة رأســـمالية بطبيعتها في الصين الشيوعية، نجاحاً مماثلاً.

وجدت الحكومة أنها لا تســـتطيع اســـتيعاب آثار الرأسمالية ضمن منطقة SEZ. لقد انْفَلَتَ مارد الرأســـمالية من القُمْقُم بسرعة حتى حاولت الحكومة في

الثمانينات أن تلجمه بحملة وطنية ضد «التلوث الروحي». وتكشف أن التلوث كان من النوع الاستهلاكي الذي ستعقد الصين آمالها عليه فوراً.

وليس ثَمَة نظير تاريخي لنمو شـينـزهين. وربما كانت شيكاغو أقرب شبهاً. لقد اسـتغرقت تلك المدينة الواقعة في الغرب الأوسـط الأمريكي خمسين سنة ليصبح عدد سـاكنيها مليوناً. غير أن شينـزهين لم تستغرق أكثر من عقد واحد، وبعد ربع قرن فقط صارت شينـزهين مدينة تأوي 7 ملايين ساكن، كما أصبحت المدينـة الرابعة في اقتصادهـا في الصين. وإن دخل الفرد واسـتطاعة المدينة الاقتصادية يقع بين أعلى النسب في البلاد.

استشعرت تنمية شينـزهين المبكرة في الثمانينيات والتسعينيات بالدور الذي ستلعبه الصين فيما بعد في الاقتصاد العالمي. وقد استغلت هونـج كونـج ، المركز الصناعي الرئيس شـينـزهين في الثمانينيات للحفاظ على منافسـة صناعاتها بالتحـول إلى اليد العاملة الرخيصة فـي البر الرئيس، وبذلك حولت اقتصادها إلى اقتصاد يعتمد أكثر على التجارة والخدمة.

واختفت الصناعة من هونـج كونـج بسـرعة كبيـرة. وتوقفت مصانعها أكثر من عقد بعـد أن ازدهرت في صناعة الأجهزة الإلكترونية، والألعاب، والأحذية، والنسيج. كانت الصناعة تغطي ربع اقتصاد هونـج كونـج سنة 1980م، وانخفضت سـنة 2002م إلى واحد من عشـرين. وبينما كان أربعة من كل عشرة من أهالي هونـج كونـج يعملون في المصانع، فقد انخفضت النسـبة إلى أقل من واحد من عشرة. وانخفضت أجور العمال الذين استمروا في العمل في الصناعة في هونـج كونـج ، مما أعطى اطمئناناً لخـوف عمال صناعيين في أنحاء أخرى من العالم بأن الصين تسـتطيع فرض تخفيض على الأجور خـارج حدودها. كانت مصانع هونـج كونـج مرة تنافس المصانع الصينية منافسـة مباشـرة أكثر من منافستها مصانـع الولايات المتحدة أو أوروبا، لكن وسـائل الاتصال المتطورة، والشـحن، ونظم الاتصالات جعلت المسـافة بين هونـج كونـج وشـينـزهين تعادل المسـافة

بـــين شـــينـزهين وأي مكان آخر. ويوازي تراجعُ هونج كونـــج الصناعي التراجعَ الصناعـــي في معظم الاقتصاديات المتقدمة في العالم، غير أن هونج كونج بدأ مبكراً أكثر وخطا شـــوطاً أطول. وأصبحت الخدمات المالية والتجارية، وبخاصة تلك التي تتعلق بالوســـاطة التجارية والسياحية أقوى. يعكس ذلك الاتجاه أيضاً توجه اقتصاديات أخرى، بخاصة الاقتصاد الأمريكي.

وإذ اكتَسَبَ عمال هونج كونج الخبرة التي يحتاجون إليها للعمل في اقتصاد يحتـــاج كثيراً من الخبـــرات، بنى صناعيـــو هونج كونج مصانع في شـــينـزهين وحولها، حيث يجول البر الصيني الرئيس ملايين من ذوي الخبرة الضعيفة بحثاً عن عمل. ووظفت المصانع التي أنشأها رأسماليو هونج كونج في النهاية عدداً من العمال يكاد يعادل عدد ســـكان هونج كونج كلها. وقد وجد 6 ملايين عامل في ســـنة 1994م أعمالاً في ثلاثين ألف مصنع في شـــينـزهين وحولها يديرها ويمولها أشـــخاص من هونج كونج . وكان مســـتثمرو هونج كونج في نهاية سنة 2002م مســـؤولين عن 60 بالمئة من 23 بليون دولار تدفقت إلى المدينة الجديدة منذ انفتاحها.

ولم يكن في مخططات الحكومة الصينية أن تجعل من شينـزهين مغناطيساً يجذب المهاجرين الريفيين. فقد كان النظام الصارم الذي تفرضه الدولة لتنظيم حركة الناس سارياً عندما وافق دنج على تطور شينـزهين. وبرغم ذلك، فإن اثنين من كل ثلاثة من عمال شينـزهين أتوا من مهاجري الصين العائمين. وهم يتفقون مع نوع الســـكان أيضاً، مما يجعل شينـزهين أكثر المدن شباباً في العالم، فمعظم سكانها دون التاسعة والعشرين من عمرهم.

ليس ثَمَّة مدينة في العالم يطبعها الشباب مثلها. تأخذ الحياة الثقافية في شينـزهين، من يستطيع أن يتحملها، شكل حدائق ألعاب. وتهتز المدينة في المساء على أنغام أدنى فرق الموسيقى الإلكترونية في الصين.

وقبل أن تجد شنغهاي الحال الذي يلائمها في أواخر التسعينات، كانت شينزهين مصدر إلهام جيل من الصينيين الشباب. وعندما أجرت عالمة الإنثروبولوجية كونستانس كلارك Constance Clark دراسة عن المدينة في منتصف تسعينيات القرن العشرين، وجدت أن أبناء العشرينيات الصينيين، الذين بلغوا سن الرشد في الوقت الذي كانت شينزهين تنمو وتزدهر فيه، رأوا في المدينة رمزاً لكل ما هو ممكن. كانت شينزهين المكان الذي تتحقق فيه أحلام المهاجر بالعمل والمغامرة والحب؛ وكانت المكان الذي يستطيعون اللجوء إليه هرباً من ضغوط الأبوين، والأسرة، والجيران، ويستطيع أن يَغْنَى بطريقته الخاصة. كانت المكان الذي يستطيع الشاب أن يعيد تكوين نفسه في أرض حيث تملي الدولة جميع احتمالات المرء. وعندما انتشر التلفزيون في جميع أرجاء الصين، كان لظهور شينزهين وقع الدراما الوطنية، فكان أشبه باستعراض ترومان Truman Show حيث ألهبت حياة سكان المدينة الجدد والمدينة نفسها القلوب والخيال في كل مكان.

الفتيات العاملات في شينزهين، القسم 1

يفوق عددُ النساءِ عددَ الرجال في شينزهين، وهذا غير مألوف في الصين. في عام 2001 فقد كانت 3.5 مليون فرصة عمل تؤديها نساء من أصل 4.75 مليون فرصة عمل، وذلك حسب إحصاء رسمي. وتقول مصادر مستقلة: إن المسؤولين يعطون في إحصاءاتهم عدداً دون الحقيقة. ولا يمكن استغراب هذه الأرقام من وجهة نظر تاريخية معينة. فقد طلبت نساء شابات العمل في صناعات خفيفة منذ بداية الثورة الصناعية. وكان لصانعي النسيج الأمريكيين، في منتصف القرن التاسع عشر، الريادة في نظام مسكن العمال. كان أصحاب المصانع، يرون الشابات ملائمات لأعمال المصانع التي تتطلب صبراً ومهارات آلية بسيطة، وهذه صفات يقال إن الرجال لا يتمتعون بها. إن هذا النقاش التافه أعاد تشكيل قوة العمل عندما أتيح له ذلك. ولو كان الأمر صحيحاً، لكانت صناعة الساعات، وقَطْع الألماس، وعمل الأقفال، ورسم المنمنمات الفارسية

كلها بأيدي النساء الشـــابات.، ويمتدح أصحاب المصانع في قوة العمل النسائية الشابة سلاسة انقيادها وفي لحظات يكونون فيها أكثر أمانة. ويقول مدير وحدة الكترونيـــة صينية عَملَ فترة في الولايـــات المتحدة، وتايوان، وكورية، «إن الرجال يدخنون ويتقاتلون وتصعب إدارتهم، ويمكنهم إثارة المتاعب».

وبرغم الانطباع الســـائد عن أن العمـــال الصينيين طيعون، غير أن المديرين يخشون العمال الأكبر سناً، الذين يعتمدون على الراديكالية الجازمة التي أملتها الثورة الثقافية في رفع الشكاوى. والاحتجاجات في ازدياد.

ففـــي الوقت الذي تنســـجم فيه قوة العمل النســـائية الطاغية في شـــينزهين مع نموذج التنمية الذي يعمل بانســـجام مع نخبة الســـلطة في الصين – المجموعة المتداخلة من قادة العمل والمســـؤولين الحكوميين – فإن استخدام النساء المهاجرات في المناطق الصناعية الحديثة يسيء إلى مكانة الصينيين الأكبر سناً، الذين ما زالوا على رأس عملهم. وإذ يُجْبَر عشرات ملايين العمال على ترك وظائفهم في المصانع التي تملكها الدولة، وملايين أخرى تســـتبعد عن الأجهزة البيروقراطية والعسكرية الحكومية المتضخمة، وتوضح إعلانات الوظائف الجديدة في مصانع البلاد الأكثر نشـــاطاً إن العمال المتقدمين في العمر – وبخاصة الرجال منهم – ليســـوا مرغوباً بهم. وقد قامت إحدى منظمـــات حقوق العاملين في هونج كونج مؤخراً بترجمة إعلان عن وظيفة في أحد المصانع بَثَّه تلفزيون شينزهين، جاء فيه:

شركة إكس إكس تي في تكنولوجي المحدودة (شينزهين)

XX TV TECHNOLOGY(SHENZHEN) LIMITED COMPANY

إعلان توظيف

إكس إكس تي في تكنولوجي شركة استثمار تملكها هونج كونج، تأسست في تموز/يوليو سنة 1992م، في جاردين ستريت، كوزوِيْ بِيْ، هونج كونج. Jardin

eStreet،CausewayBay،HongKong. تنتج الشـــركة أجهزة هاتف ثنائية اللغة لها بشاشـــتين، وهواتف «خلية النحـــلbee nest «ومحولات. وقد حققت الشـــركة مســـتوى جودة إيزو9002 ISO الدولية. ونعرض أجوراً معقولة، وبيئة عمل مريحة، وإدارة شـــفافة. وإننا نطلب موظفين فـــي المجالات الآتية بموافقة الإدارة العليا وفي ضوء التوسع في ورشتي إنتاج.

دائرة الإنتاج

عاملات نساء، يوجد 260 وظيفة شاغرة متوفرة.

الشروط المطلوبة:

(1) تعليم ثانوي.

(2) أن يكون العمربين سنة 18 و26 سنة.

(3) أن تكون صحة مقدِّمة الطلب جيدة، وأن تتَّصِف بالجِدّ في العمل.

وتعدالخبرة في المصانع الإلكترونية ميزة لِمُقَدِّم الطلب.

الأجر:

(1) الأجر اليومي 17 يواناً.

(2) أجر العمل الإضافي:1: 1.5.

(3) مكافأة المواظبة على العمل دون انقطاع: 45 يواناً.

عاملون رجال، يوجد 20 موقعاً شاغراً.

الشروط المطلوبة:

(1) خبرة عملية مدة سنتين.

(2) معرفة أولية بالإصلاح والصيانة.

تعد رخصة الإقامة ميزة. الأجر: حسب المهارات.

إن البنات والشابات اللاتي يملأن مصانع الصين الجديدة يشكلن أيضاً قوة عمل تقلق بقية العالم. فخطوط الإنتاج في مصانع الإلكترونيات الاستهلاكية التي تجعل الصين الآن الصانع الرائد في العالم لعدة أصناف رئيسة، منها: أجهزة التليفزيون، معظم من يعمل فيها نساء. وإن هذه المصانع ضخمة جداً، يعمل في بعضها عشرات ألوف الموظفين.

وتستطيع نساء الصين الشابات أن يَشْغَلْنَ كثيراً من الوظائف في مصانع الأحذية، والثياب، والنسيج في البلاد، حتى إنهن قد يقوِّضن نظماً اقتصادية كاملة. ويُتَوَقَّع أن تسحب معامل نسيج في جنوب الصين ملايين فرص عمل من عمال في مصانع أخرى خلال السنوات العشر القادمة، ويشمل ذلك أيضاً كثير من النساء في بلدان نامية أخرى. وتشكل الثياب والنسيج 6% من جميع صادرات العالم، وتتجاوز قيمتها 340 بليون دولار. فيصنع العالم النامي – ومنه الصين – الآن من الثياب والنسيج أكثر مما تصنعه الدول الصناعية، وفي بعض الأماكن الأكثر فقراً في العالم – مثل باكستان، وبنجلاديش، وسريلانكا، والهند، وتركيا، ونيبال، ولاوس، وكمبوديا – تغطي تلك التجارة حصة الأسد من عائدات التصدير وتشكل عادة مَصدَر عدد هائل من الوظائف الصناعية.

كانت صادرات الصين من الثياب والنسيج إلى الولايات المتحدة في الماضي يحكمها نظام حصص تقسم السوق الأمريكية بين بلدان مختلفة. وقد تغَيَّر كل ذلك سراعاً فألغت أنظمة تجارية دولية جديدة نظام الحصص وأعطت الصين تسديداً واضحاً على سوق الولايات المتحدة والعالم في كل مصنوعات القماش أو الجلد. وقد تمكنت الصين الآن من السيطرة على المناطق المحددة التي استطاعت دخولها.

ويقول نِيْل كيرني Neil Kearney الأمين العام للاتحاد الدولي للعاملين في النسيج والثياب والجلد الذي يضم 217 عضواً كجماعة منتسبة من 110 دول، عن خوف العالم من الصين. ويقول كيرني: إن حصة الصين من البضائع

التي تستوردها الولايات المتحدة من تسع وعشرين صنفاً من الثياب التي رفعت من الحصص (الكوتا) سنة 2002م تضاعفت ثلاثة أضعاف، بينما انخفضت الواردات من بقية دول العالم بمقدار 14%. وقد اكتسحت العاملات الصينيات الشابات المنافسة في بعض الأصناف. فكانت صناعة ثياب الحمام تجارة جيدة في المكسيك والفلبين، فخسرت هذه البلدان ثلث تجارتها، بينما توسعت تجارة الصين سبعة أضعاف. كما كانت جواتيمالا وبنجلاديش وسريلانكا مناطق جيدة لصناعة القفازات، فانخفضت صادراتهم إلى الولايات المتحدة بمقدار الثلثين عندما دخلت القفازات التي تصنعها نساء الصين المخازن الأمريكية. كان نجاح الصين محدوداً طالما ضَبَطَ نظام الحصص وصولها إلى السوق. ويقول كيرمي: «إن هذا يقدم صورة عما يمكن أن يحدث عندما ترفع جميع الأصناف من نظام الحصص».

ونجد الصورة مماثلة في صادرات الصين إلى الاتحاد الأُوروبي، حيث تضاعفت تجارة الصين في كثير من أصناف النسيج مرتين أو ثلاثة وربما أكثر. إن المصانع الجديدة تصعب مضاربتها. فعندما بلغت الصين الأسواق التي لم يكن متاح لها دخولها من قبل، خفض المنتجون الصينيون أسعار السوق بمعدل 44%. وأجْبَرَت الصينُ أُوروبا على تخفيض الأسعار بمقدار 42%، لأن النساء الشابات القادمات من شينزهين يعملن جادّات، ساعات طويلة، وبأجر ضئيل.

العمل الجاد لتحصيل المال

إن نمو شينزهين السريع جعل شوارع المدينة تزدان بفنادق خمسة نجوم، والدكاكين الفاخرة، والمطاعم اللامعة مثل فرساي، وصالات بيع سيارات بورشه، وأرصفة يسلكها رجال يحملون أكياساً بقبضات إيطالية، ونساء توسعت عيونهن بأدوات التجميل أو بالجراحة التجميلية وقد حشرت أوراكهن في تنورات جلدية من تصميم لوي فيتون Louis Vuitton. وبجدر بنا أن نلاحظ أن تعاظم المال، والتباهي، والوتيرة ليست مجرد حواجز ضد الاستمرار، وإنما هي ثمارها.

وطالما أن شينزهين لم تجد موقعها كمركز للتكنولوجيا العالية، أو ممر للتكنولوجيا الإحيائية، فإن ثروتها ستبقى للطبقة العليا من بلدة مصانع ضُخِّمَت كثيراً. إن الأمركله هو بناء قوة عمل لن تجد لنفسها مكاناً، ولن تتمكن من التنظيم، وستبقى رخيصة طالما استطاعت ذلك، مثل جميع مدن المصانع التي تعتمد على النساء المهاجرات أولاً، ثم على الرجال ثانياً.

وعندما انتشرت تظاهرات الطلاب في أرجاء الصين، في ثمانينيات القرن العشرين، وأدت في النهاية إلى الاحتجاج والإجراءات الصارمة التي اتخذتها الحكومة في ساحة تيانانمين Tiananmen Square، كان عَدُّ الشباب الصيني التحديَ الرئيس للنظام القديم أمراً طبيعياً. فعندما تتفكك الحكومات الحديثة، يكون الشباب هم الذين يفككونها. ومازالت الحكومة الصينية تفتح عينيها جيداً على الطلاب، ومازال الطلاب يرفعون رؤوسهم مطالبين بالحوار والديمقراطية.

لا يُشَكِّل المثاليون في الحرم الجامعي الكتلة المتفجرة في ثقافة المال الجديدة التي تميل ميلاً طاغياً نحو شباب المدينة، وإنما هم الصينيون الأكبر سناً، مدنيون وريفيون، الذين حُرِموا حَقَّهم بالاحترام والإجلال. واتَّسَعَت دائرة الاحتجاجات بين هذه المجموعة. حيث ضَمَّت المسيرة الواحدة ثلاثين ألفاً من العمال على الأقل، يخرجون إلى الشوارع عندما توقف مرتباتهم، وعندما تعدهم الدولة مُنشَقّين، وتطردهم بمرتب تقاعدي مُبَكر يدعو إلى السخرية. لقد أَغفلت مصيرَهم فيما مضى حكومةٌ تناضل للتخلص من نَمِر الإصلاح والنمو، صار في الآونة الأخيرة يُعالجُه، بحذر شديد، بعضُ أعضاء الحكومة الذين يحسبون للمستقبل ألف حساب.

وصلت رسالة إلى جيانج زيمين في تموز/يوليو 2001م، وكان ما يزال يومئذ الرئيس والقائد الأوحد الأكثر قوة في الصين، فضربت الرسالة على وتر حساس عند الحكومة المركزية. كتبت الرسالة في الوقت الذي كان الحزب يفكر بِجِد، لأول مرة، السماح للصينيين من القطاع الخاص بدخول الحزب الشيوعي. كتب

الرسالة المدير العام السابق لشركة الفولاذ التابعة للحكومة الصينية ومسؤول رفيع سابق لاتحاد العمال الصيني الذي تديره الدولة. لم يكن أيهما ليوحي بأنه مُنشَق، غير أن كلماتهما التي تهاجم التزام جيانج زيمين الصارخ باقتصاد السوق ما كان لها أن تكون أقوى:

لقد أصبح العمل سلعةً اليوم. ولايستمتع العمال إلا بقليل من حقوق الديمقراطية في المؤسسات، وحتى ذلك القدر القليل الذي ليس مضموناً أبداً.... يترك العمال مواقع عملهم فَيُحرَمون مزايا أقدَميَّتهم، مثلما يؤمرون. وقد فقد عدد هائل من العمال أعمالهم اليوم؛ ليس لهم من يلجأون إليه لوقف هذه الحيف الذي حَلَّ بهم. وبعد تركهم العمل، تتدفق مجموعة من المزارعين الشباب لتحل محلهم. وعند مقارنتهم بالعاملين في المدن، باستثناء المزارعين صغار السن، وذوي الأجر المتدني، وضعف علاقاتهم مع المشاريع، فإن شيئاً من أمور تعليمهم، ومهاراتهم، ورؤيتهم السياسية والشخصية لن يتحسن. وإن حال العمال في الأعمال الخاصة المحلية أو الاستثمار الأجنبي سيئة ولا تطاق، وليس فيها ضمانات.

تحرص الشركات الغربية التي تستعمل المصانع الصينية على التأكد من أن منشآتها تطبق مقاييس التوظيف الإنسانية. وتقوم فرق من المفتشين بتفقد المصانع للتأكد من حسن الإنارة، والتهوية، وأن العمال لا يُكَلّفون بالعمل في ورديات غير معقولة. وتعرف المصانع النظام جيداً وقد ابتدعت أساليب لغش المفتشين بسهولة، باستعمال المواهب ذاتها في الهجوم المضلل الذي طبق أمداً طويلاً في خداع مسؤولي الحكومة والحزب الشيوعي الذين يتفقدون المزارع والمصانع للتأكد من علو الإنتاج وأن الناس «سعداء». ويعني ذلك في المصانع إجراء عمليات أمامية وأخرى خلفية، تقدم منشآت نموذجية في مكان، وأخرى أقل نموذجية وأعلى إنتاجاً في مكان آخر. ويلح كثير من العمال بطلب العمل ساعات أطول، مما يشكل أفضل فرصة لهم للتقدم في نظام عمل ثابت فيه لا يكفي لتسديد الفواتير وإرسال مال لأولئك الذين يحتاجون إليه في البيت.

غير أن الأنظمة المزدوجة تستطيع أن تلبي حاجة المسرفين من أنصار التفكير الذين قد يحبطه الواقع. ميشـــيل مـــون Michelle Mone متعهدة قادمة من جلاسكو في اسكتلندة، التي أسست شركة لصنع صديريات سنة 1996م عندما كانت في عشرينيات عمرها، قد تكون واحدة من اللاتي جعلن عملياتهن الصينية تبدو أجمل مما هي حقاً. فشـــركة مون، واســـمها إم جي إم إنترناشُنال MJM International تنتج ماركة أولتيمو Ultimo line of bras المشهورة بحشوة الســـيليكون التي تظهر من تلبســـها أجمل. التفتت إلى المصانع الصينية النامية لتجميـــع خطوط الإنتاج لـــ إم جي إم وتبقي الآن هذه المصانع أســـعار المنتجات مقبولة حيث يباع صديري أولتيمو بما يقارب 35 دولاراً.

نشـــرت صحيفة ديلي ريكورد Daily Record الاســـكتلندية في نيســـان 2004م إعلانـــاً ملفتاً علـــى الطراز اللندني – كمية كبيرة مـــن العناوين الكبيرة، وطباعـــة باللـــون الأحمر، وصور في أوضـــاع مختلفة – عن زيـــارة قامت بها مون لـ دونجـــوان Dongguan، وهو مركز صناعي كبير آخر لابيعد عن شـــينزهين، بعـــد أن نقلت إنتاجها إلى هنـــاك من البرتغال. واعتمدت تغطيـــة الديلي ريكورد Daily Record على الضغط الشـــديد، فنشـــرت عناوين تشـــد القراء بالطريقة التي تخشـــاها الماركات الغربية. وقد جاء في أحد الإعلانات الأكثر تشويقاً، «جنيه اســـترليني واحد في اليوم. هذا ما تتقاضاه فتيات المعامل لتصنع الصديري الأكثر إثارة في العالم. وتذهب الريكورد إلى الصين لتكتشف القذارة الكامنة وراء البريق». جعلت مون عمل الصحيفة أســـهل بملاحظات عامة أدلت بها بعد زيارتها للمصنع. فنســـب إليها قولها: «ليس هناك أطفال تعمل في المصنع. ولا ســـاعات عمل غير معقولة. فالطعام فيها جيد والأجور عظيمة. إننا ندفع إجوراُ تزيد عن المتوسط».

أقامت مون أثناء زيارتها في نُزُل للعمال، ثم قامت بتقييمها المضحك. قالت: «إن العمال يعيشون في نزل.. رائع كأنه نزل للمسافرين Travel Inn. ففي إم جي إم يستطيع المديرون الذهاب إلى بيوتهم ليلاً ليريحوا رؤوسهم على وسائدهم

دون أن يقلقوا من أننا نستغل عرق العمال بأدنى الأجور». وامتدحت مون المصنع لأنه مجهز بأجهزة تكييف الهواء ويقدم وجبات لأسر العمال.

ويتَّضح أن رؤية مون لم تكن كاملة. فقد دققت الصحيفة النظر في أحد المصانع التي تنتج إم جي إم وقالت، إن أكثر من ثمانية نساء يشتركن العيش في غرفة مزدحمة، وإن حرارة الغرفة في الليل ترتفع إلى ست وثمانين درجة فهرنهايت، وإن تكييف الهواء يقدم فقط للنزيلات اللاتي يدفعن مقابله من مرتباتهن التي تتراوح بين 50 و 60 دولار في الشهر. وإن معظم النساء اللاتي يعملن هناك أتين من المناطق الفقيرة في شمال الصين، وقد جندن للعمل بوعود وردية لا تمت إلى الواقع بصلة. وتُعطى العاملات عادة إجازة قصيرة واحدة في السنة في رأس السنة الصينية؛ يقضين معظمها في القطار الذي يحملهن إلى مواطنهن.

ولا تلبي وحدة تصنيع أولتيمو الحد المطلوب في أي من دول أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، غير أنها ربما كانت أفضل من كثير من المصانع الصينية، ويزداد الطلب على فرص العمل فيها. ويجدر القول إن الصديري القادم من الصين كان أحد المنتجات التي دارت عليها معظم النزاعات في التجارة الدولية. وأدّت العقوبات الأمريكية المفروضة على الصديري الصيني في أواخر سنة 2003م بالحكومة الصينية إلى التراجع عن صفقة لشراء ثلاثة ملايين طن من القمح الأمريكي. أما سوق الصديري العالمي، فإن عدم تصنيعه في الصين قد يعني هزيمة على أيدي الآخرين الذين يصنعون هناك.

الفتيات العاملات في شينزهين، القسم 2

حددت إحصاءات الحكومة متوسط رواتب النساء العاملات في شينزهين، ومعظمهن في سن المراهقة، بـ 72 دولار في الشهر سنة 2002م. تقيم معظمهن في مهاجع، مثلهن مثل الرجال العاملين في المدن. وشمل إحصاء الصين سنة 2000م أربعة ملايين مهجع سكني في المدينة والمناطق المحيطة بها. وإن كل

ثمانية إلى اثني عشر من الساكنين يقيمون في غرفة واحدة مثل الحال في مصنع الصديريات. وربما تكون مجمعات المهاجع مدناً داخل المدن، حيث تؤوي عشرات ألوف العمال من شركة واحدة. وحري بأجراس العمل أو مواعيد وجبات الطعام أن تطلق الجماهير في مجمعات الشركة بكثافة تضاهي ساعات الازدحام في أنفاق المدن الكبرى. وإن متوسط عدد ساعات العمل في الأسبوع سبعون ساعة، وإن نصف العاملين في شينزهين يعملون سبعة أيام في الأسبوع. ويحدد القانون ساعات العمل في أسبوع العمل بنصف ذلك، غير أن العمل الإضافي، سواء أكان طوعاً أم كرهاً، يعني مالاً إضافياً، كما يعني للكثيرين تذكرة مبكرة للعودة إلى البيت. فالنساء اللاتي يأتين للعمل في شينزهين يذهبن إلى موطنهن غالباً ليتزوجن، ولا يرغبن في الانتظار إلى ما بعد منتصف العقد الثاني من العمر.

إن كثيراً من النساء الشابات يَترُكْنَ العمل الذي أَتَيْنَ من أجله في المصنع عندما يدرِكْنَ أن أَجْرهن البسيط يُستهلك في مصاريف تحول دون تقدُّمهن في الغالب. وهكذا فإن مصانع الصين تؤدي على نحو غير مباشر إلى إحدى الصناعات الكبرى الأخرى في المدينة. وإن الشابات اللاتي يتركن عملهن في الإنتاج يَتَلَمَّسْنَ طريقَهُن نحو نوادي موسيقا karaoke.

دَع عنك جانباً أي صورة انتقيتها من صور النوادي الموسيقية من Lost in Translation or Duets. فهن يَرَيْنَ النوادي الموسيقية في الصين مثل السور العظيم بالنسبة لسياح الباحة الخلفية. إن حجم نوادي شينزهين تماثل حجم فنادق المؤتمرات، مثل نوادي بكين وشنغهاي وجميع المدن المزدهرة. وإن النقاط الرئيسة هي أن مئات الغرف في الداخل مزودة بشاشات من البلازما وأجهزة توزيع صوت رائعة. وتحجز جماعات الغرف، وتبدأ ألعاب الغناء والشراب. ويتحوَّل مشهد جاك دانييلJack Daniel مقلوباً رأساً على عقب ليصبح إبريقاً مكبوتاً من 7 أب.

وكذلك أمر النساء اللاتي يدرن المكان. فأكبر نوادي شنغهاي تستطيع استيعاب ألف امرأة. إنهن رائعات. يُغَنِّين، ويجلسن إلى جانت بعضهنَّ بعضاً، يطربن ويمزحن، وعندما يختلط الرجال ذوي الثراء، الشبان منهم والكهول، برشاقة وسلاسة بشابات لا يَلوين على شيء، فتشبك العلاقة سريعاً. وتحتل فتيات نوادي موسيقا karaoke موقعاً رئيساً في تجارة الجنس في شينزهين، ولعله أقل نضجاً من فتيات الطريق، وأقل أماناً من مومسات المدينة. إن أقدار المغنيات توجِّهُهُنَّ في أي من الاتجاهين.

قام فكتور يوان Victor Yuan الباحث الذي تدرب في جامعة هارفارد والذي يدير مكتباً استشارياً يجري دراسات عامة للشركات التجارية والوكالات الاجتماعية باسم هورايزن ريسيرتش Horizon Research في بكين، قام بدراسة موسعة لتجارة الجنس في الصين سنة 2003م كجزء من جهد متعدد الجنسيات لفهم مصدر مشكلة الإيدز AIDS في البلاد. قال يوان: «إن كثيراً من الفتيات لا يَرَين في العمل في المصنع سبيلاً إلى التقدم. فالأجور منخفضة، وثمَّة نفقات لا بد منها عندما يَعِشْنَ بعيداً من مواطنهن. فإذا عملن ثلاث سنوات أو أربع في مصنع، فإن حياتهن وآمالهن لا تتقدم أبداً».

إن الشابات اللاتي يعملن في الدعارة يُحَقِّقْن ثلاثة أضعاف أجورهن في المصانع. ولا يقتصر عملهن على مشارب النوادي الموسيقية فحسب. بل إنهن يجلسن في نوافذ صالونات التجميل التي تفتح طوال الليل بانتظار لقاء مَدفوع الأجر، وتذاكر للسينما مخادعة، ويتصلن بغرف نزلاء الفندق على أمل أن يَجِدن زبوناً راغباً. وإن أجهزة الهاتف المعلقة قد تواصل الرنين طوال الليل. فالفنادق الكبيرة هي بيوت دعارة كبيرة أيضاً. في تشرين الأول/أكتوبر 2003م، وأغارت الشرطة الصينية على فندقين يقطنهما الأثرياء في مدينة زوهاي Zhuhai شقيقة مدينة شينزهين، حيث ادعى المسؤولون أنهم اكتشفوا معربداً استمر في عربدته هناك ثلاثة أيام بناء على طلب مديري فرق جنس محلية. وكان

المشـــاركون أربعمئة رجل ياباني، وهذا ما يغـــري الصينيين باعتقالهم، إذ يحمل ذلك غرضاً سياسياً. فالاحتقار السائد لليابانيين له مضمون جنسي قوي، حيث يُشَـــبَّه الغزو الياباني نفسُـــه بالاغتصاب. وتعد القسوة الجنســـية التي مارسها جنود اليابان مع النساء الصينيات، وبخاصة في مذبحة نانجنج Nanjing سنة 1937م، مـــا زالت جرحاً نازفاً ينوء الصينيون بألمـــه. فكانت الاعتقالات الأخيرة انتصاراً للروح الوطنية، غير أنها ســـببت صعوبـــة عملية. فقد اتخذت الحكومة إجـــراءات صارمة في مناطق حياة الليل وتجارة الجنس، ونضب معين الســـياحة من هونج كونج وتايوان واليابان، وإنما لبعض الوقت فقط.

كان مخطط اللعبة للنســـاء، في النهاية، هو العودة إلى قراهن، حيث يفتحن أعمالاً تجاريـــة خاصة بهن، لإعالة أبويهنّ، ويجدن بالمـــال أزواجاً أفضل. يقول يوان «وليس ثمة من يسأل عما كُنَّ يفعلن بعيدات، فذلك لا يهم».

لا تتضمن تجارة الجنس فـــي إحصاءات مكاتب الترويج الاقتصادي المحلية فـــي المنطقة، وإنمـــا تأتي الأرقام ذات الدلالة من مصـــادر أخرى. فقد بلغ عدد أولاد السفاح، سنة 2001م، من نساء عاملات وخليلات في شينزهين 520.000 في عشرين سنة.

وماذا عن العنف؟ يقول يوان إنه يكاد لا يجد ذلك. فالســـوق لن تســـمح به. والأعمال تحتاج إمداداً ثابتاً من النســـاء الجديدات، اللاتي يُعْتَمَد عليهن لتجنيد صديقات لهن من مواطنهن. فالعمال الذين يتعرضون للابتزاز لا يصلحون لتجنيد أحد. وإنما النســـاء هن اللاتي يقررن الحد الذي يُقَدِّمْنَه للزبائن. بعضهن يغني فقط. وبعضهن يتحسس للمس. وهناك من ينضممن بسرعة إلى ركب الوطن.

غير أن صناعة الجنس في الصين لاتخلو من ضحايا. فالبلد كبير فيه كثير من وحشية غير منضبطة. وربما لانجد في صناعة الجنس في الصين محرمات نجدها في بلدان أخرى، غير أن ثَمَّة محرَّماً خطيراً واحداً؛ فالرجال في الصين

يؤثرون الجنس بلا واق أو عزل ويصرون عليه، ويدفعون ضعفي ما يدفع للجنس المحمي وربما أكثر ليمارسونه. فليس بِمُسْتَغرب أن نجد الأمراض الجنسية تُحدِث مشكلات كبيرة. فالأرقام الأخيرة تُقَدِّر عدد المصابين بالتهاب الكبد من الفئة ب بحوالي 120 مليون، والمصابين بنقص المناعة إيدز بحوالي مليون مُصاب. وتُحَذِّر الأمم المتحدة من أن يصبح عدد المصابين بالإيدز 10 ملايين سنة 2010م، وقد بقيت السلطات الحكومية صامتة حتى سنة 2004م، ولم يكن ثمَّة حملات وقاية.

وثَمَّة أمل موجود. فقد لا يكون صدفة أن تأتي برامج الوقاية في وقت يزداد قلق الصين من التفاوت في الدخل بين المدن الشرقية المزدهرة وبقية مناطق البلاد. فصناعة الجنس إحدى الطرق القليلة القوية التي تعيد المال إلى مناطق الصين الفقيرة. ولاتوجد تقديرات رسمية لذلك، وإنما قياساً على حالات مماثلة في بلدان أخرى، فإن المبلغ يصل إلى بلايين الدولارات. ففي تايلاند، النظام الآسيوي الآخر الذي يتساهل مع الجنس، يرسل العاملون في الجنس 300 مليون دولار سنوياً من دخل المدن إلى الريف. وتعني هذه الأرقام في الصين أكثر للاقتصاد المحلي، ليس لأن عدد السكان أكثر بخمس وعشرين مرة فقط، وإنما لأن معظم المال الذي يدفع مقابل الجنس مال أجنبي، وهو المال الذي يحتاج إليه اقتصاد الصين.

وأعلنت الحكومة في أيار/ مايو 2004م عن برامج أشَد لمراقبة انتشار نقص المناعة المكتسبة الإيدز ومراقبته. وتروج الآن الحملات العامة لممارسة الجنس «السليم،» التي تتضمن حرية الحصول على الواقيات الذكرية. ومما يقلق في الأمر أن الإعلانات لم تركز على منع الدعارة في المدن الشرقية وإنما استهدفت المناطق الريفية بالدرجة الأولى.

مصانع مُشْرِقَة ومدينة مُعْتِمَة

ليســت كلُّ أحلام شــينـزهين ورديةً اليوم. فقد وقعت المدينة تحت ســحابة حملة طويلة لمكافحة الفســاد شــملت عدداً كبيراً من المسؤولين، كان كثير منهم متورطاً بخطط رشوة مقدارها مليون دولاراً. والمدينة مركزٌ لأعمال تجارية تقدر بمليارات الدولارات تُرَوِّج لسِــلَع مُزَيَّفَة. وربما كانــت تجارة الجنس فيها الأكثر نشاطاً في الصين.

وقد صَوَّرَت الروائية الصينية ميان ميان Mian Mian وهي من المهاجرات المراهقــات إلى المدينة في منتصف التســعينيات الجانب المعتم من شــينـزهين تصويــراً حيوياً فاضحاً، إذ تروي قصصُها تفاصيل الحشــد اللامنتمي والمدمن على المخدرات الذي ســقطت فيه. قالت ميان ميــان في إحدى المقابلات، «أتى كثير من الضائعين إلى شــينـزهين من أماكن أخرى، وكانوا جميعاً يحلمون بمال ينقذ حياتهم. وشــينـزهين مدينة قاسية، لا قلب لها. وليس ثَمَّة شيء فيها اسمه صداقة. وليس ثَمَّة صديق فيها».

وربما استطاعت سمعة شينـزهين الملطخة القذرة بقدر ما كانت مُحَلِّقَة يوماً، أن توجه بعض الاســتثمار والمراكز الرئيسة للشركات إلى شنغهاي. فالمدينة الآن من أكثر المدن المتنافسة. غير أنها ما زالت مدينة رائعة، تفوق شنغهاي جمالاً. وإذ تجمع شينـزهين قوة أسر عالمية لا تناسب حجمها. فهي نقطة عبور إلى دلتا نهر برّل Pearl أكبر منطقة صناعية في العالم. ويأتي ترتيب شينـزهين الآن سادس أكبر ميناء في العالم. وتقف على أرصفتها عشرات الرافعات العملاقة التي تعمل على مدار الساعة في تفريغ المواد الأولية التي تحتاج إليها الصين لبناء مزيد من المدن مثل شينـزهين، ثم تعيد تحميل السفن بحاويات تملأ على أرصفة التحميل في أكبر تمركز مكثف للمصانع التي تنتج الإلكترونيات، والأحذية، والســاعات، والمجوهرات في العالم.

غير أن بعض السلع القَيِّمَة لا تشحن من ميناء شينزهين. فقد صارت المدينة مركزاً لتنمية التكنولوجية العالية والتكنولوجية الحيوية في الصين، حيث تسافر منتجاتها بالبريد الإلكتروني على نحو أفضل من البحر. وهذا أيضاً تنافس مدني في الصين، فلشينزهين منافسان رائعان بين المدن القديمة التي تضم مؤسسات تعليمية ومراكز بحوث عريقة. وقد أُرسلت فرق من شينزهين مؤخراً إلى مراكز التكنولوجية العالية في أوروبا وأمريكا لجمع الخبرات وفرض اختيارهم بالقوة على صينيي ما وراء البحار. وقد استعادت المدينة أرضاً على الجبهة البحرية لإقامة رَحْبَة صناعية ذات تكنولوجية عالية ب 250 مليون دولاراً. ويستطيع المهاجرون الجدد دعم خبرتهم بقوة عمل منخفضة الأجر من شينزهين، يصنعونها بأنفسهم، ويبنون ثانية صناعات تستطيع المنافسة عالمياً، ولن تكون من فراغ هذه المرة، وإنما فوق الماء.

وتفعل مصانع شينزهين للعمال الصناعيين في هونج كونج ما سبق أن فعلته شيكاجو من قبل، وهي المدينة التي نَمَت نُمُوّاً سريعاً. فقد روت صحيفة لوس أنجيلوس تايمز Los Angeles Times الفائزة بجائزة بولِتْزر Pulitzer سنة 2003م عن سلسلة مقالات نشرتها عن وول مارت Wal- Mart قصة شركة Second City's Lakewood Engineering & Manufactur-ing Co. التي تصنع المراوح المنزلية. كانت المراوح تباع قبل عشر سنين في المخازن الأمريكية ب 20 دولاراً. فطلبت وول مارت، وهي عميل مهم أن تبيع المراوح بسعر أقل. قالت الصحيفة إن كارل كراوس Carl Krauss يخفض التكاليف مع كل دورة. وقد أتْمَتَ (جعله أوتوماتيكياً) الإنتاج في مصنع الآجر الأحمر الذي بناه جده في الجانب الغربي من المدينة. وكان المنتج يحتاج إلى اثنين وعشرين شخصاً فصار يحتاج إلى سبعة أشخاص الآن. وضغط على مموليه ليحطموا أسعار القِطَع. فحمل هذا الشركة بعض الوقت فقط. فتخفيض سعر المراوح تخفيضاً كافياً حمل كراوس على إقامة مصنع في شينزهين، واستأجر

عمالا صينيين مهاجرين يتقاضون خمسة وعشرين سنتاً في الساعة. ويفترض ذلك أن وول مارت كانت سعيدة. وسنكتشف في الفصول القادمة الدور الذي لعبته الشركة في اقتصاد الصين.

قد تكون شينزهين انبثقت من عَدَم، وأتى عُمّالها ومديروها من كل مكان في الصين، غير أنها – مثل جميع مدن الصين المزدهرة – شقت طريقها وأقحَمَت نفسَها في حياة العمال وأصحاب المخازن في جميع أرجاء العالم.

أين الصِّبْيَة؟

تعد الهوة بين الجنسين في شينزهين أحد جوانب التحول إلى حياة المدن. فمطالب مصانع المدينة تجعل النساء الشابات أكثر قيمة هناك. وإنما الصحيح هو على خلاف ذلك في جميع مناطق الصين الأخرى تقريباً، ويعطي هذا أيضاً مدن البلاد شكلها وأثرها على بقية العالم.

أرَّخَت إحدى الروايات الإخبارية الجديدة التي تثير الريبة عن الصين في السنوات الأخيرة لعدوان على المواليد الإناث يحرف السكان على نحو غير طبيعي إلى الذكور. لماذا؟ تُذْكَر تعاليم كونفوشيوش Confucianism والتقاليد الريفية في أسباب تفضيل الأسر الصينية الذكور، وذلك تحامل يسود بخاصة خارج المدن الكبرى. فاسم العائلة، والارتباط المهم بالأجداد، يحمله عادة الخط الذكري. لكن الأسباب الاقتصادية تثقل خيارات الأسرة. ويسهم في ذلك نظام الإيجار في الصين. فالأسر المزارعة تحصل على قطعة واحدة من الأرض، ولما كانت الفتيات اللاتي يتزوجن ينتقلن بحكم العادات إلى العيش مع أسرة الزوج، فإن الأسرة التي لديها ولد ذكر تتمتع بفرصة أكبر في نظام تخصيص الأرض. ويعطي الأولاد الذكور أبويهم فرصةً أفضل في أن يكون لديهما من يخدمهما في شيخوختهما ويكون أقدر على الاهتمام بالمزرعة. أو هكذا هو الاعتقاد السائد. وإن تفضيل الذكور، على المدى البعيد، سيؤدي إلى هجر كثير من آباء القرية.

وإن ما يدعو إلى السخرية أن العمل في مزارع الصين ينتقل بازدياد إلى عهدة النساء، إذ يترك الذكور قراهم، وإن فرصة ترك الزوجين أبويهم بعد زواجهما أصبحت أكثر الآن.

وتعود هذه التبعات غير المتوقعة إلى سياسة تنظيم الأسرة في الصين. فقد وُضِعَت سياسة الولد الواحد لتُصَحِّح ما كان التخطيط المركزي يعده أحد أكبر أخطاء حكم ماو بحض الأزواج الوطنيين على تكوين أسرة كبيرة. وإن الدولة، التي شجعت بحماسة ضارية الأسرة الكبيرة في منتصف القرن العشرين، وعدّتها السبيل إلى قوة الصين الصناعية وثقلها الجغرافي، غيرت وجهتها تغييراً جذرياً. وأصبح النمو السريع لعدد سكان الصين يعد، ربما بحق، أكبر خطر يهدد رفاهية البلاد في المستقبل.

فرضت الدولة منذ بداية 1979م أن لايُنجب الزوجان أكثر من ولد واحد أو اثنين. ويعتمد ذلك على المكان الذي تعيش فيه الأسرة، وعلى ترتيب إنجاب الأولاد. فيُسْمَح لسكان المدن إنجاب أكثر من ولد واحد إن كان الزوجان في زواجهما الثاني ويريدان إنجاب طفل مشترك. أما في الريف، فيسمح القانون للأسر إنجاب طفلين، إن كان المولود الأول أنثى – إي إن لم يكن الطفل الأول الصبي الذي يتمناه معظم المزارعين الصينيين.

تنجب الأسر في الصين اليوم 118 صبياً مقابل كل 100 بنت. (إن النسبة الطبيعية في العالم هي 106 ذكور مقابل 100 من الإناث) ويقوم الأطباء، بالفحص بالموجات الصوتية، بأعمال غير قانونية وخطيرة، لتحديد جنس المولود قبل الولادة، وإجهاض الإناث. حيث تُفْقَد واحدة من كل سبع إناث في الصين، بالإجهاض، أو تقتل بعد الولادة، أو تُرمى بعد ولادتها. وقد أجرت هيئة الإذاعة البريطانية مقابلة سنة 2001م مع شين رونج Chen Rong، وهي امرأة تفرز القمامة في مقلب النفايات في بكين. فوجدت شين في أثناء تجولها خمسة أطفال إناث بين القمامة، وحملتهن إلى حيث تعيش في كوخ فيه غرفة واحدة، وتولتهن هي وزوجها بالرعاية.

وليس كل آباء البنات المفقودات في الصين يتمنون موتهن.. فقد عُرِضَت مئات آلاف البنات للتبني في السنوات العشرين الماضية. وقد صار تَبَنّي أكثر من خمسين ألف طفل، معظمهم بنات، تَبَنَّتهُم أُسَرٌ أجنبية منذ سنة1991م، كانت خمس وثلاثون ألف أسرة منهم أمريكية. وإنك ترى أبوين من أُوروبا والولايات المتحدة، تبنيا طفلاً، يدفعون بهم العربات في المدينة الممنوعة من بكين، يلفتون الاهتمام بأطفالهم الصينيين الجدد. كما تعج رحلات شركة يونايتد ايرلاينز United Airlines بين بكين و شيكاجو بصخب الأطفال الصينيين وبكائهم في أقمطتهم بين ذراعي أمهاتهم وآبائهم الأمريكيين الجدد. وإن العدد المتزايد للأطفال المتبنين في الولايات المتحدة يُوجِدُ عدداً من السكان المعنيين عناية كبيرة بالثقافة الصينية، وهذا يبني جسراً بين الثقافات في المستقبل.

إن بعض المواليد من الإناث في الصين لا يسجلن أبداً لدى السلطات، لأن الأُسر تدرك أن تسجيلهن سيحرمهم من فرصة إنجاب صبي. فقد كان تفضيل الصبيان في الريف طاغياً حتى أُجبِرَت الحكومة على تغيير سياستها، لتسمح للأُسَر التي كان طفلها الأول بنتاً الإنجاب ثانية.

ولن تخفف سياسة الحد من عدد سكان الصين من سكانها لعقود كثيرة قادمة، ولن تُدْني عددَ السكان عن بليون نسمة. فعندما تولى ماو أمورَ الصين سنة 1949م كان عدد سكانها 550 مليون نسمة. وسيرتفع العدد في سنة 2020م ثلاثة أضعاف ذلك الرقم، على أقل تقدير. وستوقف سياسة الطفل الواحد في النهاية خطر الزيادة الهندسية في عدد السكان. وبينما ترى بقية البلدان النامية زيادة عدد سكانها إرهاقاً لقدرة اقتصادها في مدهم بأسباب العيش، فإن عدد سكان الصين يستقر في وقت تشهد فيه ثروتُها الوطنية ارتفاعاً هائلاً.

ويزيد عدد الصبية والرجال على عدد النساء، اليوم في الصين 20 مليوناً وسيقل عدد الإناث والنساء عامّة في الصين في العقد القادم 60 مليوناً إن كانت النسبة بين الإناث والذكور فيها طبيعية. وبلغت المجموعة الأولى ممن أنجبوا

طفلاً وحيداً سـنَّ الخامسة والعشرين سنة 2004م، وسيكثر الغلط ويتعاظم في المجموعة التي ستليهم. ويسمي الصينيون العدد الفائض من الذكور فروعاً عارية bare branches. وقد أبدى علماء الاجتماع في الصين قلقهم من عدم التوازن الذي سيعرضها إلى عدم استقرار.

يبـدى فاليري ام. هودسـون Valerie M. Hudson من جامعة برِجهم ينـج Brigham Young في أوتا Utah وأندريـه ام دِن بُوِر Andrea M. den Boer مـن جامعـة كنت في كانتربـري the University of Kent in Canterbury بإنجلترة، قلقهما في كتابهما The Security Implications of Asia's Surplus Male Population مـن أن الكثافـة العاليـة للرجال التـي تلوح في المسـتقبل القريب قد تؤدي إلى العنـف. ويتركز خوفهما الرئيس مـن أن الرجال سـيتجمعون بتزايُد في عصابات من رجال، تميـل تاريخياً إلى السلوك العدائي. ويخشون أن يؤدي نقص النساء إلى أنماط متزايدة من التفرقة الجنسية. وإذ تصبح النساء أكثر ندرة، يصبحن أغلى كعرائس في المقايضة وفي تجارة الجنس.

وقد قال باحثون، «لقد رأينا في الصين انطلاقاً للشـرور، مثل الخطف وبيع النسـاء لتقديم عرائس لمن يستطيع أن يدفع الثمن، وندرة النساء تؤدي إلى حال يتزوج فيها رجال ذوي مزايا – كالمال، والمهارات، والتعليم – غير أن الرجال الذين لا يملكـون هذه المزايا من فقراء وغير ذوي المهارات والأميين – لا يسـتطيعون. وهكـذا ظهر فرع رئيس دائم من الفـروع العارية من أدنى الطبقات الاجتماعية – الاقتصادية».

إن الآراء المطروحـة ضاغطة، وإن ديناميكية الاقتصاد الصيني المتغير تقدم سـيناريو بديل أقل عنفاً. أما الآن، بعد أن قَلّت النساء المناسبات للزواج، ويزددن نـدرة مع مـرور الوقت، بدأ صبية المزارع الفقراء يشـعرون بالحاجة لتحسـين فرصهم بتحسين وضعهم. فإنهم يغادرون البيت للانضمام إلى فرق البناء وخطوط

الإنتاج، عوضاً عن الانخراط في خلايا إرهابية أو جيوش سرية. وبرغم الآمال التي تعلقها الأُسر على إنجاب الذكور والاحتفاظ بهم في المزرعة، فإن الشبان يهاجرون إلى المدن الصينية. ويعودكثير منهم إلى قراهم، وأكثرهم أولئك الذين لم يستطيعوا أن يتحملوا حياة المدينة. أما الرجال الأقْدَر، فإن عدداً كبيراً منهم يبقى بعيداً. ويرسلون المال إلى موطنهم. وأرسل المهاجرون إلى أهلهم في سنة 2000م حوالي 545 دولاراً وسطياً.. إذا ضُرِبَ ذلك الرقم بـ 90 مليون عامل، وذلك الحد الأدنى من السكان المهاجرين، يبلغ المال السنوي الذي يرسل من المدن الصينية حوالي 50 بليون دولاراً. غير أن الأماكن التي خَلّفَها المهاجرون وراءَهَم تكون مأساةً في الغالب، تؤوي أشخاصاً في عمر أصغر من عمر العمل أو أولئك الشيوخ الذين يقعدهم التقدم بالعمر عن الحركة.

السباق إلى الذهب

تُشَبَّه بكين كثيراً بواشنطن العاصمة. فمركزا الحكم هذان يشتركان بأُبَّهَة تتجلى في أبنيتهما العامة الضخمة غير المرتفعة. غير أن هذا التشابه قد لا يدوم طويلاً. فقد بدأت بكين تندفع إلى الأعلى، بعد أن أصابتها حمى ناطحات السحاب وانطلقت لترسم لنفسها خط أفق يحاكي خط الأفق المزدحم في شنغهاي. وتتطلع المدينة لأن ترسم لنفسها صورة أنيقة وبنية تحتية تستطيع أن تجذب الدولارات الأجنبية مثل أي مكان آخر. وليس الإقبال الشديد على البناء جديداً على المدينة، وإنما الجديد هو تَطَلُّعُها لكي تصبح أبنيتها بمقاييس الذوق الدولي. فشنغهاي التي طالما تطلَّعت إلى جذب العالم، استقطبت بضراوة مهندسي العمارة الأجانب ليبنوا أبنيتها الضخمة. وآثرت الحكومة في المدينة العاصمة والعاملون في التنمية الحريصون على رضا الحكومة توظيف مهندسي عمارة صينيين في المشاريع المهمة.

وكانت النتيجة، أن صارت مُعظم الأبنية الكبيرة في شـوارع بكين الرئيسـة خليطاً بين ضخامة المرحلة السـوفيتية وحـب الصينيين للزخرفة. وتَجِد مراكز التَسَوّق في بكين ومجمعات المكاتب الحكومية تشبه مستودعات سلاح حُوِّلت إلى مطاعم. وتبدو الفنادق أشـبه بعلب ضخمة مربعة الشكل تعلوها مطاعم دوارة، أو أسـطح معابد، أو أقواس إسـمنتية مقلوبة. وكُل ذلك يتغير بسرعة. فالمدينة تستقطب الآن أشهر مهندسي العمارة في العالم. وسيكون في بكين قبل أولمبياد 2008م مجموعـة جديدة من المباني الهائلـة التي تعكس ذروة التصميم الحديث والهندسـة. غيـر أن واقع الميزانية قد يفسـد بعض هذه الخطـط. فقد أحضرت بكين لبناء مدرج للألعاب المهندسَيْن السويسريَّيْن جاك هيرتزوج Jaque Herzog وبيِّير دو مورون Pierre de Meuron الحائزَين على جائزة بريتزكر الهندسية Pritzker Architecture Prize سـنة 2001م التي تعـادل جائزة نوبل في مجالهما. وسَـيُقَزِّم المدرج العملاق أشـهر الأبنية التي صممها المهندسان، وهي قاعـات الفن الحديث في متحف تات في لندن Tate Museum التي صممها المهندسان من وحدة قديمة لتوليد الكهرباء على نهر التيمز Thames. وقد شُبِّه المدرج، الذي سيكلف 500 مليون دولار ويتسع لثمانين ألف مشاهد، بعشِّ عصفور ضخم، وبكتلة من المعكرونة. وتحيط به شبكة تعارضية من الفولاذ منحنية برشاقة ومفتوحة فوق مركزها لترسل شعاعاً من الضوء الأبيض فوق المدينة. إنه مشروع فريد يهدف إلى إعطاء بكين مظهراً عالمياً سـابقاً لعصره. غير أنه ليس مشروع البناء الأكبر في بكين. فتلك المكارم ستكون في بناء المسرح الوطني، بكلفة 700 مليون دولار، الذي يصممه سوبرستار فرنسا المثير بول أندرو Paul Andreu. لقد صَمَّم مسـرح بكين ليكون تجمعاً لمسـارح ترقد تحت قبة هائلة من الزجاج والتيتانيوم. تجثم كلها فوق بحيرة اصطناعية فتعطي انطباعاً أنه مسـرح عائم، وهناك درج متحرك في المدخل يَشعر رواد المسرح أنهم ينزلون تحت الماء.

أما المبنى الجديد لشـبكة التلفزيـون الوطنية الصينية فهو ربما كان العمل

الهندسي الأكثر أثراً وشهرة في العالم. فهو برج ليس كالأبراج- إنه بناءان متصلان ببعضهمـــا، يرتفعان 760 قدماً في الهواء على أرض مســـاحتها 5.7 مليون قدم مربع. لا يشير تصميم كولهاس Koolhaas إلى السماء وإنما يؤطره ضمن حلقة مستمرة حادة الزوايا من الزجاج والفولاذ. وقد صُمِّمَ المبنى ليذهل من يراه، ولا شك أنه سيفعل. وهو من أول الأبنية التي تقف في المكان الذي وقع عليه الاختيار ليكون أحدث مركز حضري في بكين- وسمي المنطقة التجارية المركزية الجديدة - وسينضم إليه ثلاثمئة بناء كبير آخر مع اقتراب أولمبياد 2008م.

وعندما زار روبرت آيفي Robert Ivy مدير آركِتِكْتشرال ريكورد Archi-tectural Record مجلـــة العمـــارة الأمريكية الأولى بـــكين، كان عليه أن يعيد تحديد مفهومه للممكن. قال آيفي، «إن الأرقام تجعل العقل لا يتردد. وإن ملايين الأقـــدام المربعة من البناء الجديد تجعل بكين أكثـــر مناطق البناء ازدحاماً على وجه البسيطة. حيث يُبْنى ألفا مبنى شاهق، في تركيز لهندسة العمارة، وتصميم مدن، يجعل برلين تبدو مقدمة فقط».

ومثلما هو حال شـــنغهاي، والمدن الصينية الأخرى، فإن فن العمارة المعاصر يعلو على أنقاض الماضي، وغالباً ما يكون ذلك نتيجة تدمير قســـري. كانت جيرة بكين التقليدية، وأزقتها القديمة، تشكل معظم المساحة المأهولة من المدينة طيلة قرون عديدة. حتى يعود تاريخ بعض البيوت إلى ســـنة 1300م. وتبدو الأبنية من خارجهـــا متاهات من الممرات، والبوابـــات، والأبواب. وتجد في الداخل تجمعات متزاحمة من البيوت، لمعظمها باحات داخلية.

وبينمـــا يناضل المحافظون على التراث لإنقاذ المناطق القديمة، تجد ســـكان تلك الأزقة أنفسهم لا يطمحون إلا بالهرب من بيوتهم القديمة، الضيقة، الباردة، التـــي تعصف بها الرياح، ويعدونها بيوتاً خَرِبَة لا تتوفر فيها الشـــروط الصحية. وبينما تنطلق الأبنية الجديدة، يطلق منشـــئوها حشود الباعة إلى شوارع المدينة ومحطـــات الحافلات والقطارات. وتســـتضيف مراكز المؤتمرات المعارض العامة

المجانية، وتتباهى بلياقة ممتلكاتها الجديدة. وينتشـــر الوكلاء بوجوههم المشرقة فـــي كل مكان، يلوحـــون بكتيبات دعائيـــة براقة عن المشـــاريع المقبلة، وخرائط للمناطـــق الجديدة المجاورة للمدينة حيث ســـيصل قطار الأنفـــاق قريباً، وصور مرســـومة بالكومبيوتر لداخل الأبنية: بيوت صينية حديثة أعطيت شـــكلاً مثالياً بنوافذ عريضة، وخطوط تلفزيون ســـلكي، وتدفئة، ومياه ساخنة، وتكييف هواء، وغســـالات، وبرادات، ومدافئ على الغاز، وزوايا جميلة مزينة بكنوز أثرية. وربما كان هناك في البناء ســـوبرماركت، وباحة صغيرة للعب التنس، ومكان للجدة كي تُمـــارس التاي تشـــي tai chi. وهناك وعد غير ملموس يأتـــي عند ترك جيرة قديمـــة. فالأبواب تقفل بحذر في البنايات العالية، وللشـــقق في بكين بابان من الفولاذ وثلاثة أقفال قوية.

ويصعـــب على أهالي بكين أن يروا حال بيوتهم القديمة في أحيائها الضيقة إن جُـــدِّدَت، كما حدث في المناطق القديمة فـــي أُوروبا، وبخاصة عندما يخضع المشـــترون المحتملـــون لفيض لا ينضب من الرســـائل التي تناديهـــم لهجر بكين القديمة. وربما أُنقذت بعض المناطق المجاورة القديمة، وإنما ســـيمحى معظمها. إذا أرادت بكين أن تتفوق على شنغهاي في حداثتها، أي إنها تريد أن تبزَّ طوكيو ونيويـــورك ولندن أيضاً. وأي مكان سيتســـع لبناء يضـــم دورة مياه عامة واحدة، وأكواخ عمرها سبعمئة سنة؟ كما يصعب على المدينة أن تقف في طريق المنشئين مـــن أصحاب المال، وبناة الطرق، ودوائر الحكومـــة التي تعمل على إزالة الأحياء القديمـــة. وبخلاف الدول الديمقراطية، ثمَّة عـــدد قليل من لجان المواطنين، أو الأعضاء الناشـــطين في مجالس المدينة، أو المحامين المستعدين للتدخل لحماية الأبنية القديمة.

ولعـــل الطريقة التي أُجبر بها الناس على إخـــلاء بيوتهم كانت أهم عندهم من الحفاظ على المباني القديمة التي أخرجوا منها؛ لقد تمت بســـرعة، وعنف، وأُعطوا تعويضاً زهيداً. وقد وصف لي يونج يان Li Yong Yan، وهو كاتب يقيم في

بكين ويهتم باقتصاد الصين، طريقةَ تطوير المدن الصينية بأنها «Compitalist» أي مزيج من طريقة الحكم الشيوعية الرسمية المتحكمة وانتهازية اقتصاد السوق.

إن الصورة التي رسمها لي Li لتجديد المدن تجعل منشئ العقار التجاري الحقيقي يعرّف أبنية المدينة التي تستحق إعادة البناء، بأنها ربما تصلح لمجمع أسواق (مول). ويحمل الفكرة إلى لجنة المناطق البلدية المحلية، حيث يحصل على رخصة استعمال الأرض مقابل إيجار. ولما كانت دولة الصين تملك كل الأرض، فإنها تحدد سُبُلَ استخدامها وثمنها.

وعندما يرضي المُنشئ المسؤولينَ، تأتي البلدوزرات بعد شهر واحد. وتعد الإنذارات، وتأتي فرق العاملين لترسم على الجدران دوائر كبيرة إشعاراً بأن الدمار وشيك، ويُعْرَضُ تعويضٌ تُحَدِّده الحكومة على سكان المنطقة، إنه تعويض غير قابل للتفاوض. يقول لي Li، ويُقطَع المياه بعد ذلك عن تلك الأحياء، وكذلك الكهرباء، ويأتي رجال أشداء ليجرجروا السكان عُنوةً. وإذا أخذ النزاع بُعداً خطيراً، تدخلت الشرطة إلى جانب الحكومة وعَمِلَت على إخلاء البيوت. يقول لي: «عندما كانت الصين تمارس الاشتراكية قلباً وقالباً في الماضي لم يكن ثَمَّة تطوير تجاري. أما الآن فإن تطوير العقارات التجارية ينتشر انتشار النار في الهشيم في جميع أرجاء البلاد. والحكومة تجبي بلايين الدولارات من إيجار الأرض. وقد سُدَّت جميعُ سُبُل التفاوض والمخارج القانونية في وجه «الصينيين القدامى» الذين لم يكونوا يوماً في قاعة المؤتمر، من أجل الحفاظ على الموارد.

لاتُنقل ملكية كل الأراضي من شخص إلى آخر بالحد الأدنى من اللباقة القانونية التي تعطي مهلة شهر. فقد أحصت الحكومة الصينية 160.000 حالة مصادرات احتيالية سنة 2003م، وقد تضاعف هذا رقم عن السنة السابقة، مع ارتفاع حرارة الحمى الاقتصادية في الصين. وربما ترى الصين لزاماً عليها أن تعيد تشكيل مدنها كي تستطيع المنافسة في الاقتصاد العالمي، ولكي تفوز في

هذه المنافسة عليها أن تتخذ موقفاً شرساً ممن يعترض طريقها. وعليها أن تجعل الأشخاص المناسبين أغنياء.

لقد خَلَّفت ممارسات الاستيلاء على الأرض مقاومة لا يستهان بها جعلت الحكومة الصينية تتريث في الأمر. وقد أخذ الاحتجاج أحياناً شكل مسيرات جماعية. حيث تَجَمَّع عشرة آلاف متظاهر في بكين في صيف سنة 2004م. وفي بلد لا تتوانى عن عقاب المتظاهرين وأسرهم، أثار الاستيلاء على الأرض شكلاً آخر من الانشقاق بالانتحار على رؤوس الأشهاد. فيأتي كثير من المضطهدين إلى الأمكنة الشهيرة في بكين، مثل ساحة تينانمين Tinanmen Square والمدينة المنوعة Forbidden City لإعلان تصريحاتهم الأخيرة. سار مزارع في الخامسة والأربعين من عمره اسمه زهاو شنجليانج Zhu Shengliang بهدوء في أيلول/ سبتمبر 2003م، إلى النقطة التي تلتقي فيها بوابات القصر الإمبراطوري القديم في الساحة، وجلس، مع زوجه، تحت الصورة الكبيرة لماو تسي تونج التي مازالت معلقة على جدران الحرس القديم وفي القاعات الكبيرة للحكومة الشيوعية، وفوق ضريحه، التي تصور ماو تسي تونج تعلو وجهه نصف ابتسامة. صب زهاو البنزين على نفسه ثم أضرم النار.

إن التضحية بالنفس عمل يائس يعبر عن احتجاج، وله معنى خاص في آسيا البوذية. تعرف العالم الغربي عليه في الستينيات أثناء حرب فيتنام عندما أضرم الكهنة النار في أنفسهم، ثم في الآونة الأخيرة في سنة 2001م عندما أقدم أحد الشيوخ من أتباع فالون جنج Falun Gong على إحراق نفسه قرب المكان الذي جلس فيه زهاو نفسه. إن التضحية بالنفس هي في التقاليد تضحية، يأمل الضحية فيها أن يحدث تغييراً عاماً للذين يعانون. وقد تكون رمزاً قوياً لفشل القيادة، وهي من ثم تضحية خطيرة. إن زهاو الذي بقي على قيد الحياة، رغم فظاعة بقائه، سافر إلى بكين من الريف في مقاطعة أنهوي Anhui ليحتج على إجبار أسرته على الإخلاء.

كان هـذا التصـرف مصدر إلهـام المحتجين الريفيين الـذي عانوا مصيراً مماثلاً. ففي محاولة أخرى للانتحار في تشرين الأول/ أُكتوبر التالي، في العيد الوطني للصين، ألقى أحد مواطني بكين بنفسـه من أعلى جسـر مشهور داخل المدينـة المحظورة. حقق الرجلان بعض ما كانا يتطلعان إليه، ففي الأشـهر التي تلت، قـام متظاهرون من جميع أرجاء الصين بمسـيرات يومية تقريباً في أكبر موجة احتجاج عام عرفتها الصين منذ احتجاجات ساحة تيانامين سنة 1989م. طالـب الجميـع التراجعَ عن الإخلاء القسـري. وتتوقع جماعـة مراقبة حقوق الإنسـان أن «تنظيف المواقع الجديدة في بكين لإقامة الأولمبياد سـتبقى نقطة الوميـض». وتفيد تقارير مراقبة حقوق الإنسـان أن الحكومة اسـتجابت، حتى الآن، بقسوة متوقعة، إذ اتُّخذَت إجراءات صارمة ضدَّ المتظاهرين، وسجنت كثيراً منهـم، ومنعت عدداً كبيراً من المحتجـين من ركوب القطارات المتجهة إلى بكين، وبلمسة مأساوية ساخرة أصبحت تعد انتحار المحتجين جريمة.

ويلبي الدمار في بكين متطلبات الهيبة الوطنية التي يمليها تسليط الأضواء على أولمبياد 2008م. أما بقية أرجاء الصين، حيث تبذل القيادة الوطنية جهوداً كبيرة لترسخ جديتها في رفع معاناة الناس العاديين، فتصطدم مصالح المسؤولين المحليـين، الذين يريدون حصتهم من الثروة والمجد، مـع برامج القيادة الوطنية في هذا المجال. وإن إجراءات مكافحة فسـاد المسـؤولين المحليين ضعيفة حتى أن فرصة وقوع المسـؤولين المحليين في قبضة مكافحة الفساد لا تتجاوز واحداً في المئة. وقد تكون مكافأة المسـؤولين المحليين مرتفعة. إذ يستطيع أولئك الذين يتمتعون بسلطة فسخ إيجار أرض تملكها الحكومة أن يتوقعوا استرداد نسبة من المبلغ تعادل 30 بالمئة مما يدفعه المنشئون للحكومة لاستخدام الأرض. وغالباً ما يدفع بالبيوت وسواها من أسباب الرفاهية إضافة إلى ذلك.

وقـد ألقى فو وينجوان Fu Wennjuan، نائب وزير الإنشـاء، اللوم على الحكومـات المحليـة في تدمير نصف المـدن الصينية ونقل سـكانها إلى أماكن

أخرى، إذ قال لصحيفة تشاينا ديلي China Daily إن «بعض مشاريع الإسكان الإقليمية تجاوزت النمو الاقتصادي المحلي وطلبات المحليين أيضاً». ولم تستعمل بعض المنشـــآت العامة في المدن نتيجة لذلـــك، وذهبت الأرض وذهب المال الذي أنفق هباء منثوراً. وتحرض المشكلات السلطات المحلية التي تقترض المال لأعمال البناء تلك.. بما يؤذي صدق المجتمع برمته».

وأبدت الصين فيما مضى استعداداً لتحمل أي استياء تثيره خططها للتجديد لبناء سد المضائق الثلاثة Three Gorges Dam، وستضطر الحكومة الصينية إلى نقل حوالي مليوني شـــخص ريفي ومدني على حد سواء. وقد قابلت الشرطةُ وقوات الجيش الشـــعبي الأفرادَ والجماعات الذين احتجوا على بناء السد بشدة. فتنميـــة الصين، ومصير أولئك الذيـــن يحرضونها، تعتمد كثيراً على تحرير قيمة الأرض الموجودة تحت بيوت مواطنيها، بما يســـمح للمظلومين أن يقفوا عقبة أمام المســـتقبل. وعندما يتنافس العالم مع الحضور الصاعـــد لمدن الصين وقوة الآلة الصناعية لمدنها، فإنه يتنافس مع حكومة تستطيع أن تقود الحداثة بكل ضراوة.

أما الفوائد التي يجنيها الشـــعب الصيني فقد تسوغ طرح الحكومة، أو تبرر إدانتهـــا. فمهما يكن من صالح للصين، فإنه يجدر بمنافســـي الصين أن يأخذوا في اعتبارهم الاتجاه الذي يتخذه لاعب عالمي يدعم تصميمه العنيد على التقدم بقبضة من حديد. كما يجدر بالمنافســـين أن يأخذوا فـــي اعتبارهم أن التطبيق الفوضوي للديموقراطية المتأنية – حيث المســـاومة تبطئ وربما توقف مشـــاريع تســـمح أنظمة قوية الإرادة بتقدمها – حري به أن يعزز أو يفت من عضد القوة التجارية للمدن الأكثر انفتاحاً.

مزيد من العصير من فضلك

لا يغير تجديد الصين مظهر المدن على طول الشـــاطئ الشرقي، وفي مراكز مدنية داخلية مختارة تفضلها الصناعة والمنشـــئون فحســـب، وإنما يغير طريقة استغلالها لطاقة الكوكب.

إنك عندنـــا تتجول في نانتونج Nantong، وهـــي مدينة تضم 7.5 مليون نسمة، ولا تحمل إلا القليل من بريق شنغهاي، أو بهاء بكين، أو ازدحام وينزهاو، لا بـــد لـــك أن تذهب إلى المخازن الكبرى في وســـط المدينة. تجـــد هناك باعة في قســـم الأجهزة الإلكترونية المحموم، حيث تباع مكيفات الهواء، والســـخانات المنزلية، يقودون الزبائن إلى قســـم كامل لســـخانات الماء بالطاقة الشمسية التي توضع على سطوح المنازل.

وتبدو الســـخانات كصفوف من مصابيح فلورســـنت، مُلأت بالماء بدل الغاز. وتدفئ الشـــمسُ المـــاءَ في الزجاج، بما يخفف معظم الثقل الذي يحمله ســـخان المـــاء الكهربائي المنزلي. وإن الأجهزة المعروضة فـــي المخزن هي إرث تكنولوجي صَمَّمَه علماء تكنولوجيين صينيين سنة 1978م في جامعة كنجهوا Qinghua في بكين وأنتجتها شـــركة أحدثتها الجامعة في أواخر الثمانينات اســـمها شركة تسنجـــهوا ســـولار Tsinghua Solar Co. وأصبحت الصين أكبر مســـتعمل للطاقـــة الشمســـية لأغراض منزلية فـــي العالم، لكن معظم الاســـتعمالات هي تطبيقات بارعة لتقنية منخفضة، كسخانات المياه، لا تعتمد على خلايا كهربائية ضوئية أو عمليات معقدة لتركيز الطاقة الشمسية وتحويلها إلى كهرباء.

ويزدهر الآن استخدام تسخين الماء والتدفئة بالطاقة الشمسية. فالسخانات توفـــر المـــال، وتَحِلّ مَحَلَّ الكهرباء في المدن الجديدة التـــي تُحَمّلها ما لا تطيقها فتضطـــر إلى تقنين الكهرباء أو في فترات. لقـــد تقدمت النهضة الصناعية في الصين، والتحول إلى الإســـكان الحديث والأجهزة التي ترافقه، بخطوات سريعة فاقت قدرة البلاد على توليد الطاقة الكهربائية، فصارت البلاد تعاني من تعتيم وتخفيـــف في الإنارة، بتخطيط و بدون تخطيط. ونقلت جوانزهاو ومدن أخرى، أثناء أزمة طويلة ســـنة 2004م، مئات ألـــوف العمال للعمل في نوبات ليلية تلبية للطلـــب على الكهرباء خلال ســـاعات النهار. كما تلقت الشـــركات التجارية في شنغهاي تعليمات بإرســـال العمال إلى بيوتهم عندما ترتفع درجات الحرارة فوق خمس وتسعين درجة فرنهايت.

ولا تملك الصين الآن أكثر من 80 بالمئة من الطاقة التي تلزمها لتسير سيراً مقبولاً. وتضطر بعض المواقع إلى الاستغناء عن الكهرباء يوماً أو يومين. كما يمكن تخفيف بعض الصعاب باللجوء إلى التكنولوجية البسيطة كسخانات الطاقة الشمسية. وإن قسم التسخين بالطاقة الشمسية في مخزن كبير يعج بأنظمة من مختلف المصانع. ويتطلب سوق الصين أجهزة تستطيع مصانع الصين إنتاجها بأسعار منافسة. وقد باعت شركة تسنجهوا سولار سخانات بقيمة 370 مليون دولار في السنة مع حلول سنة 2000م، وقد وجدت نفسها تنافس خمسة وثلاثين شركة أخرى سرقت تصميماتها وصنعت مايماثلها في مصانعها.

سحب مؤذية تملأ الأفق

يعد نقص الكهرباء كارثة وطنية طارئة. وإن زيادة استعمال مصادر الطاقة – كنتيجة مباشرة لتحول الصين نحو المدن والتصنيع – يسبب للعالم ورطة أيضاً. فالتلوث، الذي كان خطراً عالمياً قبل إصلاحات الصين الاقتصادية، تفاقم خطره بدخول مئات ملايين العمال إلى المصانع، وسيارات، وبيوت جديدة. ولا يمكن الفصل بين إسهام الصين في تعتيم الكوكب وبين ما تطمح إليه مدنها، التي تعد المصدر الأسوأ للتلوث. وقد عرف العالم مع سقوط الستار الحديدي أن الاقتصاديات الشيوعية غير الفعالة تحمل أخطارها الخاصة إلى البيئة العالمية. فقد خَلَّفَت الحكومات الحمراء جُلَّ أوروبا الشرقية في دمار قاتم. وثمة كتلة تنمو من باحثين متخصصين تبحث في سياسات الصين البيئية المرعبة تحت تأثير ماو والجيل الأول من القادة الشيوعيين. ولو تركت الصين الحمراء لأساليبها القديمة لما كانت بصمتها البيئية على العالم أفضل مما يخلفه اقتصادها الذي يتَّجه إلى السوق اليوم. غير أن القذارة التي تلفظها تنمية الصين تضيف أبخرة جديدة متزايدة من الهواء والماء السيئين في عالم يزداد تَلَوُّثاً.

ومازال متوسط استهلاك الفرد للطاقة في الصين أقل كثيراً من استهلاك سكان أوفر حظاً في دول أكثر تحولاً نحو الصناعة والديمقراطية. وقصة الصين، تعتمد على عدد سكانها الكبير، وسرعة نموها الاقتصادي. ففي مدن الصين أكبر شهية للفولاذ في العالم، وأسرع سوق سيارت نمواً، ونَهَم إلى الإسمنت لا يبدو له نهاية. وإن صناعة الفولاذ والسيارات من الصناعات الأكثر تكثيفاً للطاقة.

تعد صناعة الإسمنت أكثر الصناعات التي تطلق غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، الذي يسهم على حد سواء مع البيوت الزجاجية بتسخين الكوكب، كما تمتصه بكميات كبيرة كتل المياه الكبيرة في العالم، حيث يهدد ثاني أكسيد الكربون الحياة المائية. وأصدر الصليب الأحمر الدولي، في خطوة غير عادية، تحذيراً إلى الصين من آثار التلوث الذي يسببه تحولها إلى الحياة في المدن. وجاء التحذير بعد مؤشرات مقلقة صدرت عن الحكومة الصينية. كان أولها مقال افتتاحي في صحيفة الشعب اليومية People's Daily حث الصين على إيجاد سبل لتحويل مئات ملايين المزارعين إلى أماكن سكنية مدنية «بالسرعة الممكنة». وجاء المؤشر الثاني في بحث أصدره حماة البيئة الصينية، لم يجد مدينة واحدة بين مدن الصين الكبرى التي يصل عددها إلى 340 مدينة، تلبي شروط الهواء الجيد، قياساً بكمية ثاني أكسيد الكبريت الضار في جوها المحلي. وبينت الدراسة أن حوالي مئتي مدينة منها ينطبق عليها معيار التلوث العالي الخطير.

وثمة مقياس آخر لتلوث الهواء هو مستوى المادة الدقيقة العالقة، نتيجة الدخان، والسخام، والسقط الناتج عن احتراق الوقود في الهواء. ويبلغ مستوى المواد العالقة في هواء المدن الثلاث الكبرى في الصين ثلاثة أضعاف ما تعده منظمة الصحة العالمية سليماً، وإن سبع مدن من المدن العشر التي نعدها منظمة الصحة العالمية أكثر تلوثاً في العالم موجودة في الصين.

وإن الارتفاع الأخير الحاد للتلوث مثال مزعج على المأزق الذي تسببه التنمية للصين وللعالم. فقد سمِّيت الحداثة «صفقة مع الشيطان» منذ مجيء آلة الغزل،

لأنهـــا تفرض مقايضة بـــين المزايا والتكاليـــف. وإن اســـتعمال الطاقة هو أكثر الخيارات بغضاً، وهذا أقل ما يقال في ذلك. ومنذ ســـنوات فقط، كانت الصين تبدو كأنها قد صَمَّمَت على معالجة التلوث الأسوأ فيها. فتَحَسَّن الهواء من سنة 1998م إلى 2002م، اعتماداً على سياســـة الحكومة، ودفاع الأُلوف من جماعات البيئة الجديدة في الصين، ومن الاتجاه العام الواعي للتصنيع، الذي يصبح أكثر نظافـــة مع مرور الوقت ومع ازدهار الاقتصاد. (ومثال ذلك شـــنغهاي). لقد كان نمو الصين أســـرع من حملة التنظيف الوطني، إذ ارتفع الطلب على الكهرباء في الصين بمعدل 15 بالمئة. وإن جوع الصين للطاقة، وإن تناقص عما كان من قبل، سيتطلب قدراً هائلاً من توليد الطاقة في المستقبل. فقد لبت البلاد، حتى الآن، الحاجة إلى مزيد من الطاقة بتشـــغيل وحدات توليد الطاقة التي تعمل بالفحم، وتســـتخدم فحم الصين الطري، ذا الدرجة المنخفضة، والكبريت العالي، وهو من أقـــذر أنواع الوقود. هذه الوحدات، وهي لـــبّ البنية التحتية للطاقة في الصين، ويُستبعد أن تُزال أو تتَغير أساليبها قريباً.

«علّي أن آتي بزوجي إلى الصين»

تنغمـــس الصين فـــي أكبر اندفاع لبناء وحدات طاقـــة عرفه التاريخ. وتمتد الخطط في عمق المســـتقبل وتمتص في اندفاعها مقـــداراً هائلاً من المال. فقد استثمرت الصين ســـنة 2004م أربعة وعشرين بليون دولار في مولدات جديدة. وبحســـاب صحيفة الجارديان Guardian البريطانية تضيف الصين ما يعادل اســـتطاعة بريطانية الكهربائية كلها كل ســـنتين. وهذا يعني أن الصين ستحتاج قدرات صناعة الطاقة في الولايات المتحدة في أقل تقدير.

وســـتعطي الحكومة الصينية حصة الأسد من بناء وحدات الطاقة لشركات صينية، غير أن أهداف الصين كبيرة حتى إن الشركات الأجنبية تقطف ثمار نمو قطاع الطاقة في الصين أيضاً. فشـــركات البناء الصناعية [الأمريكية] الكبرى،

مثل بِكْتِل Bechtel مشغولة منذ الآن ببناء الوحدات. والمؤسسات الدولية ناشطة أيضاً. فشركة إيه إي إس AES الأمريكية الكبرى تدير خمس وحدات طاقة في الصين، ومنها أكبر الشركات في البلاد. وتبيع شركةُ جنرال إلِكتريك General Electric الصينيينَ العنفات العملاقة وسواها من المعدات والخدمات؛ ففي سنة 2003م أنجزت أعمالاً في البلاد تزيد قيمتها على بليون دولار. وحصلت شركة ميتسوبيشي Mitsubishi Heavy Industries على عقود كبيرة لتزويد الوحدات بعنفات، بينما تزود شركة سيمنس Siemens الألمانية وحدات الفحم بالتكنولوجية الأساسية. فالأسعار المحددة باهظة وتمثل نوعاً من سلع غالية الثمن، وتجارة التكنولوجية العالية التي تأمل أمريكا وأوروبا واليابان أن تقبل الصين عليها. وليس ثمَّة ما يحرّك المسؤولين عن رؤوس الأموال العالمية أسرع من فرصة إقحام شركاتهم الكبرى في تنمية المدن الصينية. فالتحول المدني في الصين هو الموضع الذي تلتقي عنده أحلام مساهمي جنرال إلِكتريك وعمال الصين المهاجرين.

وتذهب حشود من الشركات الدولية الأصغر إلى سوق الصين، وهي شركات ليس لها ميزانيات ضخمة ولاتقف وراءها حكومات تدعمها. وتهدئ الصين قلق الأُوروبيين والأمريكيين بأن تتيح لهم فرص بيع في سوق ينمو حقاً. فقد منعت حكوماتهم بناء وحدات جديدة للطاقة منذ أمد بعيد، فصار إيجاد موقع لوحدة جديدة من رابع المستحيلات في ضوء أنظمة البيئية. وعندما يقع الاختيار على موقع، تهب المجتمعات بضراوة ضد شركة الطاقة التي اقترحت بناءه. أما الشركات التي تصنع القطع التي تستعمل في وحدات الطاقة فإنها في معظم حالاتها قطع لمشروعات قديمة تمت عندما كانت اقتصادياتهم المحلية في أوج ازدهار بناء وحدات الطاقة، وتعمل الآن لصنع قطع غيار، أو لصنع تكنولوجية مبتكرة تستطيع أن تنسجم مع نظام قديم. تتألف شركة كلايد بِرجمن Clyde Bergmann من شبكة من المصانع الصغيرة والمكاتب في أوروبا والولايات

المتحـــدة، وأخيراً في الصين، تصنع وتقدم الخدمـــات لبعض المعدات التي تبدو عاديـــة في وحدة طاقـــة، مثل أنظمة تنظيف المرجل. فوحـــدات الطاقة لا تعمل دون منظفـــين، وإذا كان المنظفون من ســـوية ضعيفة، فـــإن المراجل تصير أقذر. ويديـــر مكتب الصين مهندس محلي واحد، وفي يـــوم معين قد يكون موعد لقاء رجال المبيعات والمهندســـين القادمين من مصانع الشركة في استونية Estonia، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وألمانيا.

وعندما يُحَدِّث ستيفن وِنكِل Steven Winkle زملاءَه، وهوأحدُ التنفيذيين الزائرين من منشـــأة الشركة في أتْلَنْتا ومن المولعين بالصين، فإنه لا يستطيع أن يُخفي حماســـته لفرصة الســـوق الهائلة القادمة. ويقول: «أحب هذا البلد كثيراً، إنه مكان مثير. لقد أحضرت زوجتي لكي تراه».

يســـتطيع وِنـــكِل ومجموعة كلايد بِرجـــمَن أن يبقوا في الصـــين طالما بقيت نفقاتهم منخفضة. إنهم يتفادون الفنادق الغالية ذات الطراز الغربي، ويســـتعملون طاولات تُطوى كأثاث لمكاتبهم. وكان مكتب الشركة في الصين منذ سنة خَلت، في بناء لا تدفئة فيه. ويقول عن شـــركته الأم: «إن لمغامرة شـــركتنا مشكلة مع النمو، والصين تبني نصف الوحدات التي تعمل بالفحم في العالم». ويدرس وِنكِل المشهد الاقتصادي في الصين ويدرك حاجة حكومة الصين المُلِحَّة إلى التوسع في التنمية باتجاه الغرب. ويقول: «ســـوف يَبني الصينيون مدنـــاً كاملةً جديدةً حول محطات الطاقـــة الجديدة التي تطورها». وســـوف يقيمون مراكـــز صناعية في قرى كانت نائمة، إن اســـتطاعوا تأمين الطاقة اللازمة لها. ويقول وِنكِل: إن شركته قد نقلت بعض صناعاتها إلى الصين، حيث وجد عمالاً شباباً مهرة، تَدَرَّبوا على التكنولوجية الصناعية القديمة، يصعب أن يجدهم في مصانع الشركة في أوروبا والغرب.

غير أن ســـوق الطاقة الصيني ليس كله فرصاً. فقـــد قيل إن قطاع الطاقة في الصين «من أكبر مقابر الاســـتثمارات الأجنبية في الصين». وتشير الخدمات التجارية الأمريكية The U.S. Commercial Service، وهي الهيئة الحكومية

التي ترعى الأعمال التجارية الأمريكية في الخارج، إلى أن الصفقات الكبيرة بين المشـــغلين الأجانب لمحطات الطاقة وســـلطات الطاقة المحلية تسير سيراً سيئاً. وتقول الهيئة محذرة الشـــركات – سواء أكانت مثل جنرال إلكتريك GE أم كلايد بِرجـــمن، أن عليها أن تتوقع ضغطاً لِنَقـــل تكنولوجيتها إلى الصين فتقيم بذلك تنافسها الخاص داخل البلد. وكما في صناعات أخرى يستعمل الصينيون جزرة أسواقهم الواســـعة، والوعود المغرية لانتزاع تنازلات من الشركات الأجنبية تعزز بناء قوة الصين الصناعية. وهذه سياســـة تستحق إعجاباً تُحسَد عليه، لِسِجِلِّها الطويـــل في النجاح، عندما ينظر إليه مـــن زاوية الصين. أما توليد الطاقة، فإن كلفة طموح الصين قد تشتد وطأته على شعبها وعلى العالم. فإذا بقي المصنعون الأجانـــب، رُوّاد حلول صديقـــة للبيئة في صناعة الطاقة، خارج الصين خشـــية أن يســـرق المنافسون الصينيون تكنولوجيتهم، فلن تنشـــئ الصين البنية التحتية النظيفة للطاقة التي يريد لها العالم أن تحصل عليها.

وإن كلفة الطاقة القذرة لسكان المدن الصينية هي أنهم يموتون شباباً. حيث يقدر أن أربعمئة ألف شخص يموتون كل سنة بإصابتهم بأمراض القلب والرئتين التي يُسَـــبِّبُها تلوث الهواء. وإن الكلفـــة التي يتحملها الريف الصيني لتلوث المدن عالية؛ فالأمطار الحامضية تهطل فوق 30 بالمئة من الأراضي. وقد انتشرت إلى بلدان أخرى من شـــرق آسية. ويشـــير أخصائي في الطاقة في مصرف التنمية الآســـيوي Asian Development Bank إلـــى أن الصـــين قد تكون مصدر 40 بالمئـــة من تلوث الهواء في اليابان وكورية الجنوبيـــة. فاليابان التي عانت من مطر الصين الحامضي جيـــلاً كاملاً، تدفع للصين مالاً لتنظيف وحدات الطاقة الخاصة بها. وقدمت اليابان بين ســـنة 1997م وسنة 2002م قروضاً بلغت 3،1 بليون دولار لمشاريع بيئية في الصين.

ويرحل التلوث الصيني بأشكال أخرى أيضاً. حيث يرحل مزيج من الضباب والدخـــان smog الذي تنقله الرياح، ويعرف بالســـحابة البُنيَّة الآســـيوية، فوق

نانتونج Nantong ومدن أخرى على الشاطئ الشرقي، ليَحملها، على نحو مَرئي إلى الشاطئ الغربي لأمريكا، التيار النفاث السريع، وتقاس الملوثات الصينية عبر البلاد. وتغير السحابة البنية أنماط المناخ العالمي. ويرى العلماء الآن أنها ربما كانت تخفف المطر على امتداد غابات واشنطن وأُرجن Oregon حتى مزارع الغرب الأوسط Midwest.

وبخلاف شنغهاي وبكين، لم تزدحم شوارع نانتونج الرئيسة بالسيارات، غير أنها ما زالت تعج بالدراجات العادية والنارية. فتتراكم أمام المخازن الكبرى ألوف الدراجات من الطراز الإنكليزي الكلاسيكي القديم باللونين الرمادي والأخضر الذي رآه الأمريكيون آخر مرة في وداعاً يا سيد تشِبسGoodbye Mr. Chips. وقد حلَّ الزمن ورمل الطرقات محل أي بريق كان للدراجات في منظومة العجلتين أيام المساواة الكئيبة في عهد ماو. وبرغم أنها لا تشير إلى أي بعد إيديولوجي. وتكلف الدراجة المستعملة التي ما زالت بوضع جيد 10 دولارات في نانتونج، وإن قلة من أصحاب الدراجات يغامرون بترك دراجة ملونة حديثة بين حشد الدراجات العادية، فلابد أنهم سيفقدونها.

وسوف يتوقف أهالي نانتونج عن القلق من فقدان دراجاتهم في وسط المدينة قريباً. فالمدنية تسارع إلى بناء الشوارع والطرقات الدولية التي تحتاج إليها لتلبية حاجة الحضور المتزاسد من السيارات والشاحنات. وإن نانتونج، التي تؤوي أيضاً موانئ الصين الأولى على المحيط، تدرك أنها تدور في فلك شنغهاي، التي تبعد عنها مسافة نصف يوم إلى الجنوب. وتنوي نانتونج أن تجهز نفسها لتليق بالمدينة الأكبر، ولا ترغب شنغهاي في أكثر من ذلك. فنانتونج تستطيع أن تستوعب دخان المصانع التي تحتاج موطناً آخر. وليس أمام المدن المجاورة، مثل نانتونج، إلا أن تستفيد غير أنها تريد أن تعطي نفسها شكلاً جديداً. وسيكون راكبو الدراجات والدراجات النارية أول من يعاني من ذلك.

وإذا كانت المدن الأخرى هي القدوة، فإن نانتونج سوف تمنع النقل على عجلتين في معظم شوارعها. وسيضع هذا المدينة على خط ينسجم مع سياسات

الصين الوطنية التي تشـــجع الناس على نحو متزايد لاقتناء الســـيارات، وتدعم بذلك صناعة تعتمد عليها تطلعات البلاد الصناعية الواسعة.

وتمضي تنمية الصين ســـريعة أكثر من قدرتها على تأسيس نظام بيئي فعال وإدارتـــه. ولمـــا كانت الصين عاجزة عن التحكم بملوثاتهـــا الخاصة، فإن خير ما يســـتطيع العالم أن يرجوه هـــو التوصل إلى اتفاق دولي يضبـــط التلوث في كل مكان – ودون ذلك [خرط القتاد]، غير أنه ضرورة قصوى في ضوء قدرة الصين الكامنة على إفساد الكوكب.

قوة التنّين

أثبتت الســـيارات أنها نعمة مختلطة في مدن الصين والعالم. فســـرعان ما انبثقت صناعة السيارات في الصين بين أكثر أنواع الأعمال إثارة، فكانت مقامرة على مســـتوى عالمي. وتســـتحق نظرة أدق في مكان آخر من هذا الكتاب، غير أن أي بحث في المدن الصينية لا بد أن يتطرق إلى دور السيارات.

وكان لدخول ثقافة السيارة إلى المدن الصينية بصورتها الأوسع، تبعات حيثما كانت تسير السيارات. فبائعو النِّفط في العالم لا يحتاجون إلى انقطاعات كبيرة في قواعد زبائنهم أو إمداداتهم ليســـجلوا تغييراً هائلاً في الأســـعار. وقد أدت تغيرات بســـيطة فـــي العرض والطلب فيما مضى، كارتفـــاع لا يتجاوز 5 % في الطلب على النفط المصفّى، إلى ارتفاع كبير في الأسعار في العالم تجاوز 30 %. ورافق التحول إلى المدن مع الإقبال الشديد على السيارات، فالمدن تنشئ الطبقة الوسطى التي تستطيع اقتناء سيارات. فيجعل ذلك الازدهارُ الصينَ عميلاً رئيساً في أســـواق نفط العالم، وقد كان شـــراؤه أحد العوامل الرئيســـة في رفع أسعار النِّفط سنة 2004م إلى أعلى مستوى وصله في حينه، وهو 55 دولار للبرميل في تشرين الأول / أكتوبر 2004م. ورافقت نسبة نمو الصين التي تجاوزت 9% مع الحاجة إلى مليون برميل من النفط يومياً في الشـــهور التسعة الأولى من السنة.

وأنزل، في ذلك الوقت، ما يزيد على أربعة عشر ألف سيارة جديدة إلى طرقات الصين في كل يوم.

تعيش سيارات الصين ومنتجو الكهرباء المتعطشون فيها تحت السيف ذاته. فعندما تعجز وحدات الفحم الكبيرة عن تلبية حاجات الصناعات، تعمل وحدات أصغر تعمل على النِّفط لتملأ الفراغ. وقد وجدت المصانع في الآونة الأخيرة أن خير وسيلة تقيهم التقنين هي بناء مُوَلدات الطاقة في مواقعهم، تعمل على الغاز أو الديزل. يتوقع آندي زي Andy Xie من مورجان ستانلي Morgan Stanley أن أسعار النفط العالمية ستخضع لطلب الصين للنفط في السنين القادمة. وإن قِلَّة من المحللين يرون في الآثار بعيدة المدى لتحول الصين إلى السيارات أيَّ شيءٍ سوى ارتفاع الأسعار.

وصارت السيارات في مدن الصين مصدر التلوث الأول في البلاد. فسيارات الصين تُلوِّث أكثر مما تلوِّث أي سيارات أخرى في أي مكان آخر من العالم، لأن قانون الصين يحدد قواعد للتلوث أضعف كثيراً مما تحدده قوانين أوروبا والولايات المتحدة. فتقول مجلة ذا فار إيسترن ايكونوميك ريفيو The Far Eastern Economic Review إن وزارة الخارجية الأمريكية لن تسمح للدبلوماسيين الذين يعاني أفراد أسرهم من الربو بالعمل في مدن الصين.

وتعد الحكومة المركزية الصينية بأنها ستفرض في المستقبل قواعد أشد في التلوث، غير أن ذلك الوعد سيعتمد على استعداد الحكومات المحلية للعب دور الشرطي، وذلك أمر بعيد الاحتمال. وحتى إن لاقت القواعد المشددة قبولاً، فإن اندفاع الصين في استعمال السيارات في العقدين القادمين سيجعلها ملوثاً مثل الولايات المتحدة. ولا بد للعالم خارج الصين أن يتعامل مع ذلك، بصرف النظر عما تفعله الصين لتنظف عملها. فتَقَدّم الصين مرتبط الآن ارتباطاً وثيقاً بالسيارات، التي تعد أساساً في تنمية الصين، وهذا حق.

جنود الطرقات

يأخذ الظهورُ المفاجئ لثقافة السيارات في الصين الغرباءَ – وحتى الصينيين أنفسهم – على حين غرّة. ونستطيع عَدَّ السيارة في الصين وليدة التنافس الكبير بين مدن البلاد. فذلك السباق، قبل أي شيء آخر، هو اندفاع إلى بناء بنية تحتية، ليس أقلها بناء شبكة طرقات يسلكها عدد السيارات المتزايد في الصين، الذي يدخل إلى الساحة لأن الصين كررت في كل مكان، بأعداد كبيرة، وعلى مستوى أوسع، البنية التحتية للمدن الأمريكية الحديثة الكبرى، على الرغم من أنها تَمَّت بمواصفات صينية.

فمن أين أتى كل ذلك؟ تبدو الطرقات الرئيسة في الصين أفضل من الطرقات الألمانية (الأوتوبان)، وبخاصة في الليل. فالطرقات ذات الإنارة الساطعة الخارجة من شنغهاي باتجاه سوزهاو Suzhou ترتفع عالية على طول معابر مرتفعة تنطلق باتجاه السماء حاملة السيارات فوق حركة السير المتمهلة التي تجري في عدة أدوار في الأسفل. ولا يقدم الطريق السريع حلاً يذكر خلال ساعات ازدحام الذروة الطويلة في المدينة، غير أنه يختصر الوقت ويقدم إطلالة مباشرة على المدينة ذات الأبنية العالية. وعند زحف ضوء النهار على الحواف المزدحمة للمدينة، تتراجع النُّصُب التذكارية أمام ألوف الأبراج غير المميزة المستقاة من المخططات نفسها، تلك التي تسمح ببناء هذه الأبراج بأسرع وقت. وتُبنى الأبراج أصلاً من الإسمنت وأنابيب الفولاذ، منتظمة بصفوف من الأنواع نفسها من النوافذ ومكيفات الهواء الصغيرة. أما في الأبنية الأقدم قليلاً فالنوافذ ترشح – ويقول الصينيون إنها «تبكي» – ومكيفات الهواء تقطر باستمرار، مخلفة خطوطاً غير منتظمة حمراء، وسوداء، وبينية، وخضراء على الوجه الخارجي للبناء. أما الأبنية العالية الأكثر قدماً، وهي مشاريع إسكان كبيرة تُؤوي المُسِنّين والمصروفين من العمل في شقق صغيرة تحوي غرفتي نوم وتؤجر بمبلغ يتراوح بين 12 و20 دولار في الشهر، تنضح جدرانها بكميات من المواد المعدنية تجعلها أشبه بمواقع جيولوجية.

وتختفي هذه التفاصيل في الليل، وعندما تعمل الشبكة الكهربائية بكامل طاقتها، فَتُغَيِّر جميع أجزاء شـــنغهاي، حتى القاتمة منها، إلى خليط من البريق الأبيض من نوافذ الأبنية والألوان المشـــعة يخطف الأبصار، تلك التي تزرعها لافتات النيون في عتمة الليل. ويجري شـــريط من الضوء الأزرق اللازوردي على أُفق المدينة، ويقطع الظلمة مثل قلادة متوهجة، أما الطريق الســـريع فيكون هادئاً. ويتحَوَّل ليل شنغهاي إلى شـــكل صُوَر التقطت بتعريض الفيلم طويلاً long exposure لمشـــاهد مدنية تجعـــل المدن المصورة في مجلة ناشُـــنال جيوجرافيك National Geographic تبدو كأنها تتحرك بسرعة تزيغ البصر.

وليس ثَمَّة شـــك في أن الســـيارات والقطارات ليست الوحيدة التي تتحرك ســـريعة؛ فالحكومات المحلية، والمنشـــئون، وفرق بناء الطرق الرئيســـة كلها على هذه الشـــاكلة. وإن الطرق الرئيسة داخل شنغهاي وخارجها، التي نُفِّذَت بمعدات بنـــاء ألمانيا وإســـمنت عالي الجودة أُعد لِتَحَمُّل مواصـــلات الصين المتزايدة، ما تكاد تُنجَز حتى تبدأ غيرها. لقد زاد عدد الســـيارات بســـرعة كبيرة على بعض الطرقات، حتى إن مساراتها سرعان ما تضاعفت إلى ثمانية. وربما كانت تزداد أكثر لو استطاع المهندسون ابتكار طريقة لتوسيعها أكثر، غير أن أبعاد الطرق قد مُددت إلى أقصى حدودها.

إن الحل الطبيعي للطرقات شديدة الازدحام هو بناء طرق رافدة. فالصين لا تعاني من مشكلة في تصور طرق سريعة جديدة وبنائها. فقد وضعت الآن خطط لتوســـيع شـــبكة الطرق في الصين كلها ســـتضيف، عملياً، معادلاً لنظام الطرق الرئيسة بين الولايات الأمريكية كلها.

ولا يســـع العقل إلا أن يذهل، ولِبُرهَة فقط، فإنْ نَظر المرءُ نَظرةً مُتَّزنة وفَكَّر في الأمر، وجد أن ضخامة عدد ســـكان الصين، والآمـــال التي تزكيها الصناعة في المناطق النامية من البلاد، وأمل الحكومة الصينية وجميع شركات السيارات الكبرى في العالم أن يشتري الصينيون مئات ملايين السيارات، لايفي بحاجاتها حجم الطرق كالشبكة التي في الولايات المتحدة.

ونجد، بحسب سير الأعمال العامة في كل مكان في العالم تقريباً، أن الطرقات شديدة الازدحام ستدفع الحكومات إلى التفكير في مواقع تبني عليها طرقات تريح حركة المواصلات. والأمر ليس بهذه البساطة في الصين. فكل شِبْرٍ من الطرقات السريعة الجديدة في شرقي الصين هو عمل تجاري، تملكه الحكومة – سواء أكانت حكومة محلية أم مقاطعة – وتؤجره لشركة من شركات القطاع الخاص، التي تستثمره بفرض رسم على المركبات التي تسلكه. وبين الذين يوافقون على بناء طرق رئيسة والذين يديرون أكشاك دفع الرسوم مجموعة من مسؤولين، ومخططين، ومنفذين، وممولين، وشركات هندسية، وشركات بناء مختلفة، جميعهم يرجون ربحاً وفيراً. فالطرقات السريعة تشغل موقعاً يشبه النفع العام، تقدم فيه الحكومة المعنية احتكاراً لمن يقدم تلك الخدمة، وهذا يعيد المال – في الولايات المتحدة بخاصة – إلى الحكومة على شكل ضرائب. إن نقطة الاختلاف هي أن الطرقات الصينية السريعة شركات احتكارية أيضاً، مثلما كانت ستاندارد أويل Standard Oil شركة احتكارية من قبل. وإن دوافع أصحاب المصالح فيها قوية لضمان عدم وجود منافس حقيقي لطرقاتهم، حيث تؤدي شبكات طرق موازية إلى انخفاض الرسوم التي تُجبى.

غير أن المنافسة آتية في كل حال. ولا تكون المنافسة مباشرة، وإنما تأتي من طرق تُبْنى في مناطق أخرى تطمح إلى بنية تحتية حديثة ومنافسة، وأرباح خاصة لها. وكانت مقاطعة زيجيانجZhejiang Province رائدة هذا النظام، يدفعها اليأس الذي دفع مواطني المقاطعة إلى شق طريقهم بنجاح نحو القطاع الخاص. ولما كانت الحكومة المركزية لا تقدم المال اللازم لبناء الطرق التي تحتاج إليها تجارتهم الوليدة، فقد طرحت حكومة المقاطعة فكرة بناء طرقات بمال يجمع من سوق الأوراق المالية في هونج كونج، ويكون لكل طريق شركته الخاصة، وتسدد بطريقتها الخاصة. وتعمل الشركات المسؤولة عن الطرق كشركات خاصة يكون للمقاطعة حصة كبيرة فيها.

ونجحت الخطة، وأصبحت طرقات زيجيانج أمراً مهماً لمستثمري العالم، وليس للمستثمرين الصينيين فحسب، وإنما للمؤسسات الكبيرة وصناديق الاستثمار الأغنى في العالم. وأثبت برنامج بناء الطرق في زيجيانج نجاحاً مع مرور السنين، حتى إن الطرقات الرئيسة في المقاطعة لم تكلف مواطنيها شيئاً من المال العام. بل كسبت زيجيانج 30 بليون دولار من طرقاتها، وهذا مبلغ يكفي لتمويل برامج اجتماعية ضرورية أخرى، كمعالجة المياه، والمدارس، وكلاهما فوق المعدل الصيني الطبيعي. وهذه هي المقاطعة التي لم تحصل على مال من الحكومة.

إن النموذج الذي استعمل أول مرة في الطرق الرئيسة يستعمل الآن في جميع أنواع الخدمات العامة. و تتوقع الحكومة المركزية أن تبادر مدن الصين الكبرى إلى بناء منشآت حديثة لمعالجة المياه، وتفوضها ببناء وحدات تزود سكانها بمياه الشَّفَة. وثَمَّة خطط لبناء مئات من وحدات معالجة المياه الجديدة. إذ إن 15 % فقط من الصينيين يحصلون على ماء الشَّفَة السليم يصل إليهم عبر الصنابير. وتلجأ بعض الحكومات لتمويل هذه المشاريع إلى خصخصة إمدادات الماء أيضاً، وليس واضحاً بعد إن كانت هذه المشاريع رابحة مثل الطرق السريعة أم لا. ويفترض أن تحمل هذه الخطط إلى الصين أسواقاً فعّالة للخدمات، حيث يدفع الناس قيمة الخدمات التي يحصلون عليها. وقد يؤدي هذا إلى مجتمع أكثر حرصاً على صيانة هذه الخدمات والحفاظ عليها. بينما نجد الولايات المتحدة، على خلاف ذلك، حيث معظم استخدام الطرقات الرئيسة مجاني، ويُدْعَم الماء بكرم، ولعل الأمريكيين يميلون إلى الإفراط في الأمرين معاً.

ويغذي الطرحُ الصيني التوسعَ السريع في البنية التحتية. وقد لا تستطيع الدول التي تعتمد على أموال الضرائب وموافقة العامة على بناء طرقاتها مجاراة ما يسارع الصينيون لبنائه. وتأتي الطرق الرئيسة الأفضل في الولايات المتحدة لقاء ضرائب أعلى. وقد أفادت آخر تقارير وزارة النقل الأمريكية إلى الكونغرس، أن المال المرصود الآن للشبكة التي تربط الولايات ببعضها بعضاً لا يلبي الحاجة إلى إبقاء الطرق الحالية في أفضل حال، ولا يتطرق إلى التوسع فيها. ويواجه

السياسيون الذين يؤيدون رفع الضرائب على الوقود أو الدخل لتغطية نفقات البنية التحتية الضرورية، معارضة المواطنين الشديدة.

وقد أعلن الصينيون مؤخراً أنهم يفتحون مشروعات قطاراتهم لخطط استثمار خاص. ويجربون كل ما يمكن أن ينسجم ولو من بعيد مع مشروع هذه الخطة. فعندما تبنى الحدائق العامة، تؤجر الأرض المحيطة بالحديقة لتغطية نفقاتها. وتُبنى مراكز المؤتمرات البلدية لتحقيق ربح، غير أن هذا ما ثبت استحالته تقريباً في مكان آخر من العالم، وقد ينجح في الصين (بخاصة إذا حولت أجزاء من المراكز إلى مراكز تسوق كبرى!).

وقد تكون البنية التحتية المادية، كالطرقات الرئيسة، ومنظومة الماء، وسواها من الخدمات المدنية أقل أهمية في عصر تتحرك المعلومات فيه بالبايت والجزيء الرقمي، كما تتنافس دول العالم بخبرات مقارنة في مشروعات التكنولوجية العالية. وقد تكون البنية التحتية لبلد ما هي التي تحدد قوته التنافسية سلباً أو إيجاباً. فإذا كان للأصول غير الأساسية في الاقتصاد أن تكرر بسهولة في الخارج – إما ببنائها أو بنقلها – فإن الأشياء التي لا يمكن نقلها هي التي تحدد الفوارق بين الدول. فالسلع العامة القديمة كالطرقات، والماء، والطاقة، والخدمات البلدية ستكون مهمة مثل أهمية أفضل المهندسين، والاتصالات، ومخزن براءات اختراع.

وتُشَكِّل الخصخصة المُلِحَّة للطرق وسواها من منشآت البنية التحتية مفتاحاً آخر لفهم سبب النمو السريع للصين. فلقد فتحت الحكومة قيمة الأرض التي تملكها تحت أقدام الجميع. وإن كل كتلة بناء أنشِئَتْ في المدن الصينية تشكل مظهراً في هذا الجزء مهمّاً لأن الأرض التي تقوم عليها تكتسب سعراً من الحكومة – أو من أحد مسؤوليها ذي الصلة.

وتَدين الصينُ ومُدُنها بتقدمها وتلوثها للثروة التي تُقتَطع من المورد الأكبر من موارد الدولة، وهو الأرض ذاتها التي ضَحّى الشيوعيون بمليون نفس «لتحريرها» من الملكية الخاصة.